عَوَامِلُ الْقُوَّةِ

فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ

وَعَوَامِلُ سُقُوطِهَا

جمعٌ وترتيبٌ

مِنْ خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ:

أَبِي عَبدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ رَسْلَان

حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

• **أَمَّا بَعْدُ:**

فَعَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **قَالَ:** «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً»(١).

وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْمَوَاعِظُ بَلِيغَةً فِي أُسْلُوبِهَا، فَصِيحَةً فِي أَدَائِهَا؛ حَتَّىٰ تَسْلُكَ إِلَىٰ الْقُلُوبِ أَقْصَرَ طَرِيقٍ، وَحَتَّىٰ تَسْتَقِرَّ فِي الْأَفْئِدَةِ، وَحَتَّىٰ تُؤَثِّرَ فِي الْأَرْوَاحِ، وَقَدْ أُوتِيَ النَّبِيُّ ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَكَانَ ﷺ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، و٤٣، و٤٤)، من حديث: العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

وفي رواية: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ**».

والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥)، وفي «الصحيحة» (٩٣٧).

الْقَلَائِلِ، وَلَوْ أَرَادَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يَشْرَحُوا تِلْكَ الْكَلِمَاتِ لَاحْتَاجُوا إِلَىٰ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُجَلَّدَاتِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١).

❁❁❁

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١، و ٥٤)، ومواضع، ومسلم (١٩٠٧)، من حديث: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَوامِلُ قُوَّةِ بِناءِ الدُّوَلِ فِي نَصائِحَ جامِعَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ

*** تَقْوَى اللهِ مِنْ أَعْظَمِ عَوامِلِ بِناءِ الدُّوَلِ:**

فِي هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ أَبْلَغَ النَّبِيُّ ﷺ مَا لَمْ يُبْلِغْ فِي غَيْرِهَا، وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ وَقَائِعِ الْأَحْوَالِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ وَشِيكِ الِانْتِقَالِ؛ لِذَا قَالَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم: «كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ»، وَطَلَبُوا الْوَصِيَّةَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

«وَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ -أَيْ: سَالَتْ مَدَامِعُهَا-، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ -أَيْ: ضَاقَتْ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ-».

فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: «كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ»؛ لِأَنَّ الْمُوَدِّعَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِيَ أَهْلَهُ وَمَنْ يَخْلُفُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَوْجَزَ وَأَبْلَغَ، حَتَّىٰ يَكُونَ أَكْثَرَ اسْتِقْرَارًا فِي النُّفُوسِ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ دَاعِيَةً إِلَىٰ التَّنْفِيذِ.

«كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوْصِنَا».

وَكَذَا شَأْنُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فِي تَحَرِّيهِمْ لِلْخَيْرِ، وَفِي بَحْثِهِمْ عَنِ الْعِلْمِ، لَا يَدَعُونَ مَجَالًا إِلَّا وَأَلْقَوْا أَسْمَاعَ قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَفَتَحُوا أَعْيُنَ بَصَائِرِهِمْ؛

لِيَتَلَقَّوُا الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَرْسَلَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ وَالْحَقِّ.

وَالْهُدَىٰ -عِبَادَ اللهِ- هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَدِينُ الْحَقِّ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَهَذَا الدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

«أَوْصِنَا».

فَقَالَ ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ**».

وَهِيَ وَصِيَّةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

فَتَقْوَىٰ اللهِ ﷻ هِيَ النَّجَاةُ، وَالنَّاسُ يَتَفَاضَلُونَ بِهَا عِنْدَ اللهِ، وَتَقْوَىٰ اللهِ ﷻ هِيَ الْعَمَلُ بِالْمَأْمُورَاتِ، وَاجْتِنَابُ الْمَنْهِيَّاتِ.

فَالتَّقْوَىٰ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، مَنْ حَصَّلَهَا جَعَلَ لِنَفْسِهِ وِقَايَةً مِنَ النَّارِ.

وَقَوْلُ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. أَيْ: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَذَابِهِ وِقَايَةً وَجُنَّةً تَقِيكُمْ عَذَابَهُ وَسُوءَ عِقَابِهِ.

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ**»، وَعَلَيْكُمْ: اسْمُ فِعْلِ أَمْرٍ بِمَعْنَىٰ الْزَمُوا، الْزَمُوا تَقْوَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَخُذُوا بِتَقْوَاهُ، وَلَا تَنْحَرِفُوا عَنْ سَبِيلِ تُقَىٰ اللهِ ﷻ.

«**عَلَيْكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ**»: فَضَبَطَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَمِلَ بِأَوَامِرِ اللهِ عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، يَرْجُو رِضْوَانَ اللهِ، وَاجْتَنَبَ مَنْهِيَّاتِ اللهِ، عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، يَخَافُ عَذَابَ اللهِ، كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ قَدْ أَدَّىٰ الَّذِي عَلَيْهِ، وَصَارَ عَبْدًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ.

فَضَبَطَ النَّبِيُّ ﷺ كُلَّ الْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا عَلَاقَةٌ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

*** السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلْحُكَّامِ، وَعَدَمُ إِثَارَةِ الْفَوْضَى مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ:**

ثُمَّ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ الْقَاعِدَةَ الَّتِي إِذَا مَا أَخَذَ بِهَا الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ، عَاشَ فِي تَوَاؤُمٍ وَسَلَامٍ، وَبَعُدَ عَنْهُ شَبَحُ الْفَوْضَىٰ وَالِانْقِسَامِ، وَمَتَىٰ مَا خُولِفَتِ الْقَاعِدَةُ، دَبَّتِ الْفَوْضَىٰ فِي أَرْجَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَانْتُهِكَتِ الْأَعْرَاضُ، وَسُلِبَتِ الْأَمْوَالُ، وَأُزْهِقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَقُطِّعَتِ الطُّرُقُ، فَلَا جُمُعَةَ وَلَا جَمَاعَةَ؛ مِنْ أَثَرِ هَذِهِ الْفَوْضَىٰ الَّتِي تَعُمُّ الدِّيَارَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ، -عَلَيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ- وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»(١).

---

(١) أخرج البخاري (٦٩٣، و٦٩٦، و٧١٤٢)، من حديث: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَاسَهُ زَبِيبَةٌ**».

فَأَمَرَ بِطَاعَةِ وُلَاةِ الْأُمُورِ مِمَّنْ وَلَّاهُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وَلَوْ كَانَ مُتَغَلِّبًا، وَلَكِنْ طَاعَتُهُ فِي الْمَعْرُوفِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»(١).(*).

وَإِذَا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ بِإِمَامٍ جَائِرٍ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَىٰ جَوْرِهِ هُوَ سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ، وَطَرِيقَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ؛ لِأَنَّ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ يُوجِبُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِهِ.

فَيُصْبَرُ عَلَيْهِ كَمَا يُصْبَرُ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَىٰ ظُلْمِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ عَنْ لُقْمَانَ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وَهَذَا الْحَقُّ لِلْإِمَامِ بِالنُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْهَا:

- حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ؛ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**». أَخْرَجَهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠، و٧١٤٥، و٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)، من حديث: عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا، فَأَوْقَدَ نَارًا، وَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ الْآخَرُونَ: إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «**لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ قَوْلًا حَسَنًا، وَقَالَ: «**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: مُحَاضَرَةِ: «وَاقِعُ الْأُمَّةِ الْمُرُّ» - الثُّلَاثَاءُ ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٣هـ/ ٧/ ٨/ ٢٠١٢م، باختصار.

الشَّيْخَانِ(١).

وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: **«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا فَمَاتَ عَلَيْهِ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»**(٢).

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ كَذَلِكَ: حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: **«إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»**.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! فَمَا تَأْمُرُنَا؟

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **«تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ»**. أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَقَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: **«أَثَرَةٌ»**: هِيَ الِانْفِرَادُ بِالشَّيْءِ عَمَّنْ لَهُ فِيهِ حَقٌّ، وَتَعَلُّقٌ بِالْأَمْوَالِ.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: **«وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»**: أَيْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ؛ إِمَّا بِالتَّقْصِيرِ فِيهَا، وَإِمَّا بِإِحْدَاثِ الْبِدَعِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤، و٧١٤٣)، ومسلم (١٨٤٩)، من طريق: حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ الْجَعْدِ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، قَالَ: **«مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ،...»** الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩)، من طريق: عَبْدِ الْوَارِثِ، عَنِ الْجَعْدِ أَبِي عُثْمَانَ،... بإسناده، بلفظ: **«مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا،...»** الحديث.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٠٣، و٧٠٥٢)، ومسلم (١٨٤٣)، من حديث: ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ(١): «فِيهِ الْحَثُّ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَوَلِّي ظَالِمًا عَسُوفًا، فَيُعْطَىٰ حَقَّهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَلَا يُخْرَجُ عَلَيْهِ وَلَا يُخْلَعُ، بَلْ يُتَضَرَّعُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كَشْفِ أَذَاهُ، وَدَفْعِ شَرِّهِ وَإِصْلَاحِهِ».

*** وَنَهَى الشَّرْعُ الْمُطَهَّرُ عَنْ سَبِّ الْأُمَرَاءِ وَإِهَانَتِهِمْ:**

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﵁: «نَهَانَا كُبَرَاؤُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ، وَلَا تَغُشُّوهُمْ، وَلَا تُبْغِضُوهُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ**». أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السُّنَّةِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»، وَغَيْرُهُمَا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ(٢).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﵁: «إِنَّ أَوَّلَ نِفَاقِ الْمَرءِ طَعْنُهُ عَلَىٰ إِمَامِهِ». أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ»، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ»(٣).

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٢/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٢٥٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠/ رقم ٧١٠١، و٧١١٧)، وجود إسناده الألباني في «ظلال الجنة» (١٠١٥).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢/ رقم ٨٩٥٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ٢٨٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٩٠)، من طريق: بإسناد صحيح، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيٍّ، قَالَ: وَقَفَ أَبُو الدَّرْدَاءِ عَلَىٰ بَابِ مُعَاوِيَةَ فَحَجَبَهُ لِشُغْلٍ كَانَ فِيهِ فَكَأَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: «**مَنْ يَأْتِ أَبْوَابَ السُّلْطَانِ قَامَ وَقَعَدَ، وَمَنْ يَجِدْ بَابًا مُغْلَقًا يَجِدْ إِلَىٰ جَنْبِهِ بَابًا رَجَا فَتْحًا إِنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَإِنِ اسْتَعَاذَ أُعِيذَ، وَإِنَّ أَوَّلَ نِفَاقِ الْمَرْءِ طَعْنُهُ عَلَىٰ إِمَامِهِ**».

فَأَمَّا الْغَرْبِيُّونَ وَأَتْبَاعُهُمْ، وَأَمَّا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ، وَالضُّلَّالُ مِنْ أَشْيَاعِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ؛ فَيَقُولُونَ: تُرِيدُونَ تَقْدِيسَ الْبَشَرِ، وَعِبَادَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؟!!

إِنَّمَا الرَّئِيسُ أَوِ الْإِمَامُ أَوْ وَلِيُّ الْأَمْرِ أَوِ الْحَاكِمُ عِنْدَ -هَؤُلَاءِ الضُّلَّالِ- مُوَظَّفٌ يَنْبَغِي أَنْ يُحَاسَبَ، وَأَنْ يُرَاجَعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، فَلَيْسَ بِوَلِيِّ أَمْرٍ، وَعَلَيْهِ فَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ قَوْلِهِمْ وَلِيُّ أَمْرٍ، وَقَدْ غَابَ!!

هَذَا النَّهْيُ لَيْسَ تَعْظِيمًا لِذَوَاتِ الْأُمَرَاءِ -النَّهْيُ عَنْ سَبِّهِمْ، عَنِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، عَنِ الطَّعْنِ فِيهِمْ، عَنْ شَتْمِهِمْ، عَنْ إِهَانَتِهِمْ- النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ لَيْسَ تَعْظِيمًا لِذَوَاتِ الْأُمَرَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِعِظَمِ الْمَسْئُولِيَّةِ الَّتِي وُكِلَتْ إِلَيْهِمْ فِي الشَّرْعِ، وَالَّتِي لَا يُقَامُ بِهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ مَعَ وُجُودِ سَبِّهِمْ وَالْوَقِيعَةِ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ سَبَّهُمْ يُفْضِي إِلَىٰ عَدَمِ طَاعَتِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِلَىٰ إِيغَارِ صُدُورِ الْعَامَّةِ عَلَيْهِمْ، مِمَّا يَفْتَحُ مَجَالًا لِلْفَوْضَىٰ الَّتِي لَا تَعُودُ عَلَىٰ النَّاسِ إِلَّا بِالشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِ، كَمَا أَنَّ نَتِيجَتَهُ وَثَمَرَتَهُ سَبُّهُمْ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ، وَتِلْكَ هِيَ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَىٰ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «وَلَعَلَّهُ لَا يُعْرَفُ طَائِفَةٌ خَرَجَتْ عَلَىٰ ذِي سُلْطَانٍ؛ إِلَّا وَكَانَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَزَالَتْهُ».

وَقَدْ نَبَّهَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ إِلَىٰ خُطُورَةِ مُخَالَفَةِ هَذَا الْأَصْلِ، وَذَكَرَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِ، فَقَالَ فِي «إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ»(٢): «شَرَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٣٩١).

(٢) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٣/ ١٢).

إِيجَابَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ؛ لِيَحْصُلَ بِإِنْكَارِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا كَانَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ وَأَبْغَضُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسُوغُ إِنْكَارُهُ -وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يُبْغِضُهُ وَيَمْقُتُ أَهْلَهُ-، وَهَذَا كَالْإِنْكَارِ عَلَىٰ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ بِالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ أَسَاسُ كُلِّ فِتْنَةٍ وَشَرٍّ إِلَىٰ آخِرِ الدَّهْرِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ فِي الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ رَآهَا مِنْ إِضَاعَةِ هَذَا الْأَصْلِ، وَعَدَمِ الصَّبْرِ عَلَىٰ مُنْكَرٍ، فَطُلِبَ إِزَالَتُهُ، فَتَوَلَّدَ مِنْهُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ.

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرَىٰ بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا، بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ مَكَّةَ وَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ عَزَمَ عَلَىٰ تَغْيِيرِ الْبَيْتِ، وَرَدِّهِ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ -مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ- خَشْيَةُ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ مِنْ عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ.

وَلِهَذَا لَمْ يَأْذَنْ فِي الْإِنْكَارِ عَلَىٰ الْأُمَرَاءِ بِالْيَدِ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ وُقُوعِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ». (*).

فَالنَّبِيُّ ﷺ رَاعَىٰ حُقُوقَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَعَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا الْمُجْتَمَعَ لَا يَصْلُحُ، وَالنَّاسُ فِيهِ فَوْضَىٰ لَا سَرَاةَ لَهُمْ. (*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «عَقِيدَةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي حُقُوقِ الْحُكَّامِ» - الْجُمُعَةُ ٨ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٥هـ/ ٦/ ٦/ ٢٠١٤م، باختصار.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «مَظْلُومِيَّةُ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ» -الْجُمُعَةُ ١٦ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٣٥هـ/ ١٧-١-٢٠١٤م.

*** مِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:**

قَالَ ﷺ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**»، وَقَدْ وَقَعَ الِاخْتِلَافُ، وَمَا زَالَ وَاقِعًا فِي الْأُمَّةِ إِلَىٰ الْيَوْمِ، «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**»: السُّنَّةُ هِيَ الْعَاصِمُ مِنَ الِاخْتِلَافِ، هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، السُّنَّةُ كَمَا جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ، لَا كَمَا يَقُولُ بِهَا الْمُرْشِدُونَ وَالْأُمَرَاءُ، وَيَقُولُ بِهَا الدَّرَاوِيشُ!!

وَإِنَّمَا السُّنَّةُ الَّتِي هِيَ السُّنَّةُ عَنْ عُلَمَائِنَا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ-.

«**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، لَيْسَ هُنَاكَ مَا يُقَالُ لَهُ بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ.(*).

إِنَّ اللهَ جَعَلَ مَعِينَ الْحَيَاةِ فِي الْوَحْيِ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وَأَعْظَمُ الْحَيَاتَيْنِ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَأَحْيَا النَّاسِ أَتْبَعُهُمْ لِلْوَحْيِ، وَهُوَ آمَنُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ، وَبِهَذَا يَدِقُّ فَهْمُكَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ**

---

(١) تقدم تخريجه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: مُحَاضَرَةِ: «وَاقِعُ الْأُمَّةِ الْمُرُّ» - الثُّلَاثَاءُ ١٩ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٣هـ/ ٧/ ٨/ ٢٠١٢م، باختصار.

تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ». رَوَاهُ مَالِكٌ وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ(١).(*).

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (١٥/ رقم ٨٩٩٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٥٠، ترجمة ٨٠٤)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٠٦، ترجمة ٩١٨)، وابن شاهين في «الترغيب في فضائل الأعمال» (رقم ٥٢٨)، وفي «شرح مذاهب أهل السنة» (رقم ٤٤)، والدارقطني في «السنن» (رقم ٤٦٠٦، مؤسسة الرسالة)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٣، رقم ٣١٩) وصححه، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١/ رقم ٨٩)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (١٠/ رقم ٢٠٣٣٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ رقم ٨٨)، من طريق: صَالِح بْن مُوسَىٰ الطَّلْحِيّ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْع، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**».

وأخرجه مالك في «الموطأ» في (كتاب القدر، الحديث رقم ٣، تحقيق عبد الباقي)، بلاغا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**».

وحسنه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (١٧٦١)، وفي «صحيح الجامع» (٢٩٣٧، ٣٢٣٢)، والحديث أصله في «صحيح مسلم» (٢٤٠٨)، من حديث: زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**»، فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»، ...الحديث.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «كَيْفَ تَصْحَبُ النَّبِيَّ ﷺ؟» - خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ ٨ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٦هـ/ ٢٧-٢-٢٠١٥م.

فَالْوَحْيُ هُوَ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ، وَإِذَا خَلَا الْعَالَمُ مِنَ الرُّوحِ وَالنُّورِ وَالْحَيَاةِ؛ أَقَامَ اللهُ تَعَالَىٰ السَّاعَةَ؛ لِأَنَّ الْقُرآنَ يُرْفَعُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مِنَ الصُّدُورِ وَمِنَ السُّطُورِ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ آيَةٌ مِنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَذَلِكَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَحِينَئِذٍ -عِنْدَمَا يَخْلُو الْعَالَمُ مِنَ الْحَيَاةِ وَالنُّورِ وَمَادَّةِ هَذَا الوُجُودِ الحَقِّ- فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يُقِيمُ السَّاعَةَ حِينَئِذٍ.

إِذَنْ، الْوَحْيُ هُوَ نُورُ الْعَالَمِ وَحَيَاتُهُ وَهِدَايَتُهُ، وَعَلَىٰ قَدْرِ تَمَسُّكِ الْإِنْسَانِ بِهَذَا النُّورِ وَالْحَيَاةِ وَالْهُدَىٰ يَكُونُ تَحْقِيقُهُ لِلْقَصْدِ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خَلَقَنَا لِغَايَةٍ، وَهَذِهِ الْغَايَةُ مُبَيَّنَةٌ فِي الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، وَإِذَا مَا عَاشَ النَّاسُ بِهَذَا الوَحْيِ؛ سَعِدُوا فِي الْحَيَاةِ، وَتَجَنَّبُوا سُبُلَ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَا حَيَاةَ لِهَذَا الْعَالَمِ إِلَّا بِأَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْوَحْيِ.(*).

❊❊❊

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: مُحَاضَرَة: «عِيشُوا الْوَحْيَ الْمَعْصُومَ» - الْخَمِيسُ ٢٣ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٣٨هـ/ ٢٢/ ١٢/ ٢٠١٦م.

التَّوْحِيدُ أَكْبَرُ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ وَعِزَّتِهَا وَنَصْرِهَا

* **وَمِنْ أَكْبَرِ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ:** إِصْلَاحُ الْعَقِيدَةِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْقَدَ عَلَيْهِ الْخِنْصَرُ فِي أَخْذٍ بِأَسْبَابِ إِصْلَاحِ الْأُمَّةِ.

يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ أُمُورَ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ نَلْتَزِمَ بِالتَّوْحِيدِ فِي كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَلَّغَنَا عَنْ رَبِّنَا جَلَّ وَعَلَا أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَبَيَّنَ لَنَا نَبِيُّنَا ﷺ فَضْلَ التَّوْحِيدِ، وَعَظِيمَ أَثَرِهِ فِي النَّفْسِ، وَفِي الْمَآلِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.(*).

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَعَثَ رَسُولَهُ ﷺ بِمَا بَعَثَ بِهِ إِخْوَانَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِهِ، بَعَثَهُمْ جَمِيعًا بِرِسَالَةِ التَّوْحِيدِ؛ لِتَكُونَ الْعِبَادَةُ للهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَكُلُّهُمْ -صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ- قَالُوا لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وَالرَّسُولُ ﷺ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «خُطْبَةِ عِيدِ الْأَضْحَىٰ لِعَامِ ١٤٢٧هـ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا!» - السَّبْت ١٠ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٢٧هـ/ ٣٠-١٢-٢٠٠٦م، باختصار.

لَيْسَ مَقْصُودُ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ مَعَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَعْنَاهَا، وَتَحْقِيقِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، وَالْبُعْدِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُنَافِيهَا.

عِبَادَ اللهِ! بِالتَّوْحِيدِ يُقْبَلُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَمِنْ غَيْرِ التَّوْحِيدِ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ بِغَيْرِ طَهَارَةٍ، فَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ لَا تَصِحُّ بِغَيْرِ تَوْحِيدٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فَقَبُولُ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الصَّالِحَةِ، مُتَوَقِّفٌ عَلَى التَّوْحِيدِ.

التَّوْحِيدُ فِيهِ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾: أَيْ بِشِرْكٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

بِالتَّوْحِيدِ تَكُونُ الْعِزَّةُ، وَيَتَحَقَّقُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا، وَتَكُونُ عِزَّةُ الْمَرْءِ فِي الْآخِرَةِ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فَالْعِزَّةُ، وَالنَّصْرُ دُنْيَا وَآخِرَةً لَا يَتَحَقَّقَانِ إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ لِلْعَزِيزِ الْمَجِيدِ.

إِنَّ التَّوْحِيدَ يُحَرِّرُ الْعَبْدَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ؛ لِيَكُونَ عَبْدًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ رَبِّ الْعِبَادِ.

فَالتَّوْحِيدُ الْمُحَقَّقُ الصَّافِي يُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللهِ؛ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَالْآلِهَةِ الْمُدَّعَاةِ الْبَاطِلَةِ.

وَيَجْعَلُ التَّوْحِيدُ الْإِنْسَانَ شَاعِرًا بِعِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِهِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَبَرَأَهُ، وَسَوَّاهُ.

يُحَرِّرُ عَقْلَهُ كَمَا حَرَّرَ قَلْبَهُ، يُحَرِّرُ عَقْلَهُ مِنَ الْخُرَافَاتِ، مِنَ التُّرَّهَاتِ، مِنَ الْخُزَعْبَلَاتِ، حَتَّىٰ لَا يَخَافَ إِلَّا اللهَ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا اللهَ، وَلَا يَتَعَلَّقَ إِلَّا بِاللهِ، وَهَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ وَأَفْضَالِهِ.

وَأَعْظَمُ ثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ: دُخُولُ الْجَنَّةِ، فَالْجَنَّةُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مُوَحِّدٌ، حَرَّمَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

وَأَمَّا الْمُشْرِكُ؛ فَهُوَ مُوَزَّعُ الْقَلْبِ، مُقَلْقَلُ الْبَالِ، لَا يَهْدَأُ لَهُ ضَمِيرٌ، وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ يُحَرِّمُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَيُوجِبُ لَهُ النَّارَ وَالدُّخُولَ فِيهَا، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَهُوَ فِي الْحَيَاةِ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أَضَلُّ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

إِنَّ الشِّرْكَ يُطْفِئُ نُورَ الْفِطْرَةِ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [التين: ٤-٦].

قَدْ بَيَّنَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَعْضَ عَنَاصِرِ تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وَالرُّوحُ لَا تَتَحَرَّرُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ مَا خُلِقَتْ لَهُ، وَجُعِلَتْ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ بِاللهِ غَيْرَهُ، فَهُوَ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥].

إِنَّ الشِّرْكَ مَهَانَةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، وَقَضَاءٌ عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفْسِ، وَسَبَبٌ لِلذِّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ دُنْيَا وَآخِرَةً، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ؛ فَلَا عِزَّةَ لَهُ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَلَا تَتَحَقَّقُ فِيهِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْحَقَّةُ إِلَّا إِذَا حَقَّقُوا الْغَرَضَ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُمُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وَإِذَا لَمْ يُحَقِّقُوهُ تَمَزَّقَتْ نُفُوسُهُمْ.

الشِّرْكُ يُمَزِّقُ وَحْدَةَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣](*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» -الْجُمُعَةُ: ١٢ ذُو القعدة ١٤٣٣هـ/ ٢٨ سبتمبر ٢٠١٢م، باختصار.

اعْلَمُوا -عِبَادَ اللهِ- أَنَّهُ لَا يُلَوِّثُ النَّفْسَ، وَلَا يُفْسِدُ الْفِكْرَ، وَلَا يُضَيِّعُ الْعَقْلَ، وَلَا يُضَيِّعُ الدُّنْيَا، وَلَا يَهْدِمُ الدِّينَ إِلَّا الشِّرْكُ، فَكُونُوا مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرٍ.(*).

وَالْمَصْلَحَةُ الْعُلْيَا لِلْأُمَّةِ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ بِمَا يَتَحَقَّقُ بِهِ نَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَنَفْيُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٦].

فَلَا يَتَحَقَّقُ الصَّلَاحُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَنْتَفِي الْفَسَادُ مِنْهَا إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ فِيهَا، الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْخَلْقَ، فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعُلْيَا هُوَ: تَحْقِيقُ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَبِهِ تَتَحَقَّقُ الْمَصْلَحَةُ، وَبِهِ تَنْتَفِي الْمَفْسَدَةُ.(*/٢).

*** الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ:**

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَشْرَفُ وَأَكْرَمُ مَقَامَاتِ التَّعَبُّدِ للهِ.

هِيَ أَكْرَمُ مَقَامٍ يَقُومُهُ عَبْدٌ لِرَبِّهِ أَنْ يَكُونَ دَاعِيًا إِلَيْهِ، دَالًّا عَلَيْهِ، مُرْشِدًا إِلَىٰ صِرَاطِهِ، مُتَّبِعًا لِسَبِيلِ نَبِيِّهِ، مُقِيمًا عَلَىٰ ذَلِكَ، مُخْلِصًا فِيهِ، آتِيًا بِهِ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يُرْضِيهِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «خُطْبَةِ عِيدِ الْأَضْحَىٰ لِعَامِ ١٤٢٧هـ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا» - السَّبْت ١٠ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٢٧هـ/ ٣٠-١٢-٢٠٠٦م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ عِيدِ الْفِطْرِ: ١٤٣٨هـ «فِئْرَانُ السُّدُودِ» - الْأَحَد ١ مِنْ شَوَّال ١٤٣٨هـ/ ٢٥-٦-٢٠١٧م.

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

هَذَا اسْتِفَهَامٌ الْغَرَضُ مِنْهُ النَّفْيُ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أَيْ: لَا أَحَدَ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: مِمَّنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ، لَا إِلَىٰ نَفْسِهِ، وَلَا إِلَىٰ مَنْهَجِهِ، وَلَا إِلَىٰ طَرِيقَتِهِ، وَلَكِنْ إِلَىٰ اللهِ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: فَالْتَزَمَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَعَمِلَ بِهِ.

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: فَأَسْلَمَ الزِّمَامَ للهِ وَحْدَهُ بِالشَّرْعِ الْأَغَرِّ، بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا يَبْتَدِعُ، وَلَا يَتَزَيَّدُ، وَلَا يَجِدُ حَظَّ نَفْسِهِ، بَلْ يَجْعَلُ ذَلِكَ تَحْتَ مَوَاطِئِ أَقْدَامِهِ، يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ مُخْلِصًا، إِلَىٰ اللهِ خَالِصًا، للهِ وَحْدَهُ، فَلَا أَحَدَ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلًا، وَلَا أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ مِنْهُ فِعْلًا، وَلَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْهُ دَعْوَةً.

وَكُلُّ مُكَلَّفٍ وَجَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

فَمَنِ اتَّبَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا إِلَىٰ اللهِ، وَأَتْبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ دُعَاةٌ إِلَىٰ اللهِ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ، عَلَىٰ حَسَبِ عِلْمِهِ، لَا يَتَزَيَّدُ، وَإِلَّا كَانَ دَاعِيًا إِلَىٰ غَيْرِ رَبِّهِ، وَإِلَىٰ غَيْرِ صِرَاطِهِ، وَإِلَىٰ غَيْرِ دِينِهِ، قَائِلًا عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ قَدْرِ عِلْمِهِ وَعَلَىٰ قَدْرِ طَاقَتِهِ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ مَجَالٍ.

*** الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ سَبَبُ خَيْرِيَّةِ الْأُمَّةِ، وَقُوَّتِهَا وَعِزَّتِهَا:**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أَنْتُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرُ أُمَّةٍ أُظْهِرَتْ لِلنَّاسِ، وَحُمِّلَتْ وَظِيفَةَ الْخُرُوجِ بِتَبْلِيغِ النَّاسِ دِينَ اللهِ لَهُمْ، وَهَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ قَدْ عَلِمَهَا اللهُ فِيكُمْ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ يَشْمَلُ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ.

وَسَبَبُ بَقَاءِ تِلْكَ الْخَيْرِيَّةِ فِيكُمْ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ أَنَّكُمْ سَتَظَلُّونَ تَأْمُرُونَ دَاخِلَ مُجْتَمَعِكُمُ الْمُسْلِمِ بِمَا عُرِفَ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ حُسْنُهُ، وَتَنْهَوْنَ عَنْ كُلِّ مَا عُرِفَ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ قُبْحُهُ، فَتَحْمُونَ مُجْتَمَعَكُمْ بِهَذَا -أَيْ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الِانْحِرَافِ الْخَطِيرِ، وَالِانْهِيَارِ إِلَىٰ الْحَضِيضِ الَّذِي بَلَغَتْهُ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ.

وَأَنَّكُمْ سَتَظَلُّونَ تُصَدِّقُونَ بِاللهِ، وَتُخْلِصُونَ لَهُ التَّوْحِيدَ وَالْعِبَادَةَ مَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْكُمُ النَّكَبَاتُ مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ؛ بُغْيَةَ إِخْرَاجِكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَىٰ الْكُفْرِ.(*).

*** الدَّعْوَةُ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ سَبِيلُ النَّجَاةِ لِلْأُمَّةِ وَلِلْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا:**

إِنَّ مَسْئُولِيَّةَ الْمُسْلِمِ عَظِيمَةٌ، وَمَعَكَ طَوْقُ النَّجَاةِ، وَالنَّاسُ يَغْرَقُونَ تَحْتَ عَيْنِكَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَمُدُّ لَهُمْ يَدًا بِعَوْنٍ؟!!

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [آل عمران: ١١٠].

دِينُ اللهِ يَسْتَنْقِذُ الْبَشَرِيَّةَ مِمَّا تَرَدَّتْ فِيهِ.

دِينُ اللهِ -وَحْدَهُ- يُنْقِذُ النَّاسَ فِي الْأَرْضِ مِمَّا بَلَغُوهُ مِنْ هَذَا الِانْحِطَاطِ الْهَابِطِ.

دِينُ اللهِ، عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُبَلِّغُوهُ خَلْقَ اللهِ، فِي أَرْضِ اللهِ، عَلَىٰ مِنْهَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِإِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ دَمَارٍ تَبْدُو عَلَائِمُهُ، وَخَرَابٍ تَتَّضِحُ مَعَالِمُهُ.(*).

❊❊❊

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «الدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللهِ سَفِينَةُ النَّجَاةِ» - الْجُمُعَةُ ٨ مِنْ صَفَر ١٤٢٩هـ/ ١٥-٢-٢٠٠٨م.

الْعَمَلُ بِأَمَانَةٍ وَاجْتِهَادٍ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ

إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَمَرَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَاتِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ، فَالْعِبَادَاتُ أَمَانَةٌ، وَالْخِيَانَةُ فِيهَا أَنْ تُنْتَقَصَ، فَإِذَا انْتَقَصَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَهُوَ خَائِنٌ.

وَالْمُعَامَلَاتُ أَمَانَةٌ، وَمَا يُسْتَأْمَنُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ أَمَانَةٌ، وَالسِّرُّ أَمَانَةٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ تَعَلَّقَ بِهِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ فِي دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهُوَ أَمَانَةٌ، وَالْخِيَانَةُ فِيهِ أَلَّا يُؤْتَى بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ.

فَإِذَا كَانَ إِنْسَانٌ فِي عَمَلٍ، فَالْعَمَلُ الَّذِي اسْتُؤْمِنَ عَلَيْهِ أَمَانَةٌ، فَإِذَا خَانَ فِيهِ فَهُوَ خَائِنٌ، وَجَزَاءُ الْخَائِنِ مَعْلُومٌ.(*).

*** حَثَّ اللهُ عَلَى الْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:**

حَثَّ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْعَمَلِ، وَطَلَبِ الرِّزْقِ -رِزْقِ اللهِ- بِأَنَاةٍ وَرِفْقٍ، مَعَ صَبْرٍ وَكَدْحٍ:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «هَدَايَا الْمُوَظَّفِينَ» - الْجُمُعَةُ ٥ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٣١هـ/ ١٩-٢-٢٠١٠م.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]. يَعْنِي: فَإِذَا فُرِغَ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَتفرَّقُوا فِي الْأَرْضِ؛ لِلتِّجَارَةِ وَالتَّصرُّفِ فِي حَوائِجِكُمْ وَمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ، وَمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ.

وَاطْلُبُوا رِزْقَ اللهِ بِأَنَاةٍ وَرِفْقٍ، مَعَ صَبْرٍ وَكَدْحٍ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُم؛ رَغْبَةً فِي الْفَوْزِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مُنْقَادَةً سَهْلَةً مُطَوَّعَةً، تَحْرُثُونَهَا وَتَزْرَعُونَهَا، وَتَسْتَخْرِجُونَ كُنُوزَهَا، وَتَنْتَفِعُونَ مِنْ طَاقَاتِهَا، وَخَصَائِصِ عَنَاصِرِهَا.

فَامْشُوا فِي جَوَانِبِهَا وَأَطْرَافِهَا وَنَوَاحِيهَا مَشْيًا رَفِيقًا؛ لِتَحْصِيلِ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ، وَكُلُوا مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَاكْتَسِبُوا الرِّزْقَ مِمَّا أَحَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَكُمْ، وَتَذَكَّرُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ تُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.(*/٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الجمعة: ١٠].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [تفسير سورة الملك: ١٥].

الْمَعْنَىٰ: اطْلُبْ فِي تَصَرُّفِكَ فِيمَا أَعْطَاكَ اللهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ، قَاصِدًا ثَوَابَ رَبِّكَ الَّذِي لَا يَنْفَدُ فِي الْجَنَّةِ بِأَنْ تَقُومَ بِشُكْرِ اللهِ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تُنْفِقَ الْمَالَ الَّذِي أَعْطَاكَ فِي رِضَاهُ، وَلَا تَفْهَمْ أَنَّنَا نَنْصَحُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ مَا آتَاكَ اللهُ مُوَجَّهًا لِتَحْصِيلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، بَلْ نَقُولُ لَكَ أَيْضًا: لَا تَتْرُكْ حَظَّكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا اللهُ لَكَ ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾.

وَأَحْسِنْ إِلَىٰ فُقَرَاءِ قَوْمِكَ وَمَسَاكِينِهِمْ، وَذَوِي الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ فِيهِمْ بِمَالٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ بِنِعْمَتِهِ.(*).

***

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ: ٧٧].

الاِجْتِمَاعُ وَالْأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ مِنْ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ

إِنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ بَيَّنَ لَنَا طَرِيقًا وَاحِدًا يَجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْلُكُوهُ، وَهُوَ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ، وَمَنْهَجُ دِينِهِ الْقَوِيمِ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَلَيْهِمْ بَيَّنَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

فَالَّذِينَ جَعَلُوا مَنْهَجَهُمْ كِتَابَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَعَمِلُوا بِقَوْلِهِ ﷺ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ.

فَدِينُنَا دِينُ الْأُلْفَةِ وَالِاجْتِمَاعِ، وَالتَّفَرُّقُ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ، فَتَعَدُّدُ الْجَمَاعَاتِ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَكُونَ جَمَاعَةً وَاحِدَةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(١).

وَيَقُولُ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ**»(٢).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبُنْيَانَ، وَأَنَّ الْجَسَدَ شَيْءٌ وَاحِدٌ مُتَمَاسِكٌ، لَيْسَ فِيهِ تَفَرُّقٌ؛ لِأَنَّ الْبُنْيَانَ إِذَا تَفَرَّقَ سَقَطَ، كَذَلِكَ الْجِسْمُ إِذَا تَفَرَّقَ فَقَدَ الْحَيَاةَ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الِاجْتِمَاعِ، وَأَنْ نَكُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً، أَسَاسُهَا التَّوْحِيدُ، وَمَنْهَجُهَا دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسَارُهَا عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.(*).

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ دَاعِيَةَ ائْتِلَافٍ، فَلَا تَخْتَلِفُوا، وَجَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ دَاعِيَةَ مَحَبَّةٍ، فَلَا تَبَاغَضُوا.(*/٢).

❁❁❁

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١، و ٢٤٤٦، و ٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥)، من حديث: أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، من حديث: النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةِ: «أَيُّهَا الْمِصْرِيُّونَ! لَا عُذْرَ لَكُمْ» -الْجُمُعَةُ ٢٩ مِنْ صَفَر ١٤٣٧هـ- ١١/ ١٢/ ٢٠١٥م، باختصار.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: خُطْبَةِ: «الْأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ»، باختصار.

حُبُّ الْوَطَنِ وَالانْتِمَاءِ إِلَيْهِ مِنْ عَوَامِلِ بِنَائِهِ

عِبَادَ اللهِ! مَا دَامَتْ بِلَادُنَا إِسْلَامِيَّةً فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْعَىٰ لِاسْتِقْرَارِهَا، وَاكْتِمَالِ أَمْنِهَا، وَيَجِبُ حِيَاطَتُهَا بِالرِّعَايَةِ، وَالْحِفَاظِ وَالْبَذْلِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينٍ -كَمَا فِي شَرْحِهِ عَلَىٰ «رِيَاضِ الصَّالِحِينَ»-(١): «حُبُّ الْوَطَنِ إِنْ كَانَ إِسْلَامِيًّا فَهَذَا تُحِبُّهُ؛ لِأَنَّهُ إِسْلَامِيٌّ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ وَطَنِكَ الَّذِي هُوَ مَسْقَطُ رَأْسِكَ، وَالوَطَنِ الْبَعِيدِ عَنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، كُلُّهَا أَوْطَانٌ إِسْلَامِيَّةٌ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْمِيَهَا».

الْوَطَنُ إِنْ كَانَ إِسْلَامِيًّا يَجِبُ أَنْ يُحَبَّ، وَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يُشَجِّعَ عَلَىٰ الْخَيْرِ فِي وَطَنِهِ، وَعَلَىٰ بَقَائِهِ إِسْلَامِيًّا، وَأَنْ يُسْعَىٰ لِاسْتِقْرَارِ أَوْضَاعِهِ وَأَهْلِهِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ لَوَازِمِ الْحُبِّ الشَّرْعِيِّ لِلْأَوْطَانِ الْمُسْلِمَةِ أَيْضًا: أَنْ يُحَافَظَ عَلَىٰ أَمْنِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا، وَأَنْ تُجَنَّبَ الْأَسْبَابَ الْمُفْضِيَةَ إِلَىٰ الْفَوْضَىٰ وَالِاضْطِرَابِ وَالْفَسَادِ؛ فَالْأَمْنُ فِي الْأَوْطَانِ مِنْ أَعْظَمِ مِنَنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ.

---

(١) «شَرحُ رِياضِ الصَّالِحِينَ» (١/ ٦٦).

فَعَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ بَلَدِهِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ اسْتِقْرَارِهِ وَأَمْنِهِ، وبُعْدِهِ وَإِبْعَادِهِ عَنِ الْفَوْضَىٰ، وَعَنْ الِاضْطِرَابِ، وَعَنْ وُقُوعِ الْمُشَاغَبَاتِ.

عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ بَلَدَهُ الْإِسْلامِيَّ، وَأَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ، وَأَنْ يَمُوتَ دُونَهُ؛ فَإِنَّ مَنْ مَاتَ دُونَ مَالِهِ فَهُو شَهِيدٌ، وَالْأَرْضُ مَالٌ، فَمَنْ مَاتَ دُونَ مَالِهِ فَهُو شَهِيدٌ.(*).

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ شَاكِر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-(١): «إِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ تَقْوَىٰ اللهِ هِيَ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَنَحْوُهُمَا مِنَ الْعِبَادَاتِ فَقَطْ، إِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ تَدْخُلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ... **وَاتَّقِ اللهَ فِي بَلَدِكَ، لَا تَخُنْهُ وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْهِ عَدُوًّا...**».

فَمَا دَامَ الْوَطَنُ إِسْلَامِيًّا فَيَجِبُ الدِّفَاعُ عَنْهُ، وَيَحْرُمُ الْإِضْرَارُ بِهِ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: مِصْرُ بَيْنَ مَطَامِعِ الْأَعْدَاءِ وَجُحُودِ الْأَبْنَاءِ - خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ ١٦ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٦هـ/ ٣/ ٧/ ٢٠١٥م، باختصار.

(١) «وَصَايَا الآباءِ للأَبْنَاءِ - الدُّرُوسُ الأَوَّلِيَّةُ فِي الأَخْلَاقِ المَرضِيَّةِ» (ص ٢٠، مَكتبَةُ المَعارِفِ - الرِّياض ١٤١٣هـ).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: كِتَابِ: «حُبُّ الوَطَنِ الإِسْلَامِيِّ مِنَ الإِيمانِ» - طبعة مكتبة الفرقان- الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٨م، باختصار.

الْعِلْمُ وَالْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ

إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ عَلَىٰ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ خَيْرُ مَا بُذِلَتْ فِيهِ الْأَعْمَارُ، وَأُلْحِقَ فِيهِ اللَّيْلُ بِالنَّهَارِ.

الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ ... للهِ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ قَدَمِ
الْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ ... أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجُهَّالُ فِي الظُّلَمِ
الْعِلْمُ أَعْلَىٰ[1] وَأَحْلَىٰ مَا لَهُ ... أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ[2]

---

(١) في «المنظومة الميمية»: [أَغْلَىٰ] بالغين المعجمة.

(٢) الأبيات للعلامة حافظ بن أحمد الحكمي (المتوفىٰ: ١٣٧٧) من «المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية» (ص ٣٧٩ - مجموع الرسائل والمنظومات العلمية لحافظ الحكمي، تحقيق أبو همام البيضاني)، قال حافظ الحكمي من البيت (١٦) إلىٰ (١٩):

الْعِلْمُ أَغْلَىٰ وَأَحْلَىٰ مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ ... أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ
الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُصْوَىٰ وَرُتْبَتُهُ الْـ ... ـعَلْيَاءُ فَاسْعَوا إِلَيْهِ يَا أُولِي الْهِمَمِ
الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ ... للهِ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ قَدَمِ
الْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ ... أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجُهَّالُ فِي الظُّلَمِ

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثِ «الصَّحِيحَيْنِ»(١) مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْجَهْلَ وَالْجُهَّالَ سَبَبُ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**».

وَمَفْهُومُ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ سَبَبُ الْهِدَايَةِ وَالِاهْتِدَاءِ؛ لِذَا كَانَ مِنَ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الدِّفَاعُ عَنِ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّ الْكُتُبَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُدَافِعَ عَنِ الشَّرِيعَةِ، إِنَّمَا يُدَافِعُ عَنِ الشَّرِيعَةِ حَامِلُهَا.(*).

وَلَمَّا كَانَ كُلٌّ مِنَ الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالْحُجَّةِ يُسَمَّىٰ سَبِيلَ اللهِ؛ فَسَّرَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَوْلَهُ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، بِالْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، فَإِنَّهُم الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، هَؤُلَاءِ بِأَيْدِيهِمْ -يَعْنِي: الْأُمَرَاءَ-، وَهَؤُلَاءِ بِأَلْسِنَتِهِمْ -يَعْنِي الْعُلَمَاءَ-.

ذَكَرَ ابنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْجَامِعِ»(٢) عَنْ بَعْضِهِمْ فِي قَدْرِ الْعُلَمَاءِ وَقِيمَتِهِمْ:

---

(١) «صحيح البخاري» (١٠٠، و٧٣٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧٣)، من حديث: عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «نَصِيحَةَ الْعَلَّامَةِ رَسْلَان لِطُلَّابِ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ»في يومِ ١٦ مِنْ شَوَّال ١٤٣٨هـ/ ١٠/ ٧/ ٢٠١٧م.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٥١، رقم ١٥٥)، ونسب هذه الأبيات لِأَبِي بَكْرِ ابْنِ دُرَيْدٍ، ونسبه أبو طاهر السِلفي في «معجم السفر» (ص ٢١٢ - ٢١٣، رقم ٦٨٤) وغيره لِابْنِ الْأَنْبَارِيِّ.

وَمِـدَادُ مَـا تَجْـرِي بِـهِ أَقْلَامُهُـمْ أَزْكَـىٰ وَأَفْضَـلُ مِـنْ دَمِ الشُّـهَدَاءِ
يَـا طَـالِبِي عِلْـمِ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدٍ مَـا أَنْـتُمْ وَسُـوَاكُمْ بِسَـوَاءِ

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَصِمَ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنْ يَسْلُكَ سَبِيلَ الطَّلَبِ عَلَىٰ نَهْجِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَفِي هَذَا النَّجَاةُ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِيهِ.

فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ النَّجَاةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُمَا مَعْدِنُ الْعِلْمِ وَأَصْلُهُ، فَمَهْمَا تَرَكَ الْإِنْسَانُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَتَنَكَّبَهُمَا وَاسْتَدْبَرَهُمَا وَجَعَلَهُمَا دَبْرَ أُذُنَيْهِ وَخَلْفَ ظَهْرِهِ؛ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ حَقًّا وَصِدْقًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي تَمُوجُ بِالْفِتَنِ مَوْجَ الْبَحْرِ، وَهِيَ تَتَلَاطَمُ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ وَقَد عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ؛ فَتَسَنَّمُوا كُلَّ ذِرْوَةٍ، وَعَلَوْا كُلَّ مِنْبَرٍ، وَصَارَ صَوْتُهُمْ عَالِيًا قَوِيًّا، وَإِنَّمَا هُمْ فِي النِّهَايَةِ غُثَاءٌ، مَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ وَالْحَالَ هَذِهِ؛ فَعَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.(*).

*** الْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ، وَالْجَيْشُ الْمِصْرِيُّ مِثَالًا:**

قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَأَعِدُّوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ لِقِتَالِ الْكَافِرِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْأَسْلِحَةِ وَالْآلَاتِ الَّتِي تَكُونُ لَكُمْ قُوَّةً فِي الْحَرْبِ عَلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «حَيْثُ وَقَعَ نَفَعَ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنَ الْمَحَرَّمِ ١٤٣٤هـ/ ١٦-١١-٢٠١٢م.

وَأَعِدُّوا مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَرْبُوطَةِ الْمُجَهَّزَةِ لِلْهُجُومِ وَالِانْقِضَاضِ عَلَىٰ الْعَدُوِّ بَعْدَ إِثْخَانِهِ وَتَدْمِيرِهِ بِقُوَّةِ الرَّمْيِ، تُخَوِّفُونَ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْمُرْهِبَةِ، وَذَلِكَ الرِّبَاطِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَتُرْهِبُونَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ الْأَعْدَاءِ الظَّاهِرِينَ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، لَا تَظْهَرُ لَكُمْ عَدَاوَتُهُمُ الْآنَ، لَكِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُمْ.

وَإِعْدَادُ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ الْمَالِيِّ، فَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ أَجْرُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُعَجَّلُ لَكُمْ عِوَضُهُ فِي الدُّنْيَا؛ بَرَكَةً فِي رِزْقِكُمْ وَنَمَاءً فِي أَمْوَالِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تُنْقِصُونَ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا.(*).

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»(١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ كَانَ كَذَا وَكَذَا** -يَعْنِي: لَوْ كَانَ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا- **وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

وَالْعُلَمَاءُ -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ- وَمِنْهُمُ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٢) عِنْدَ تَعَرُّضِهِ لِشَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ، ذَكَرَ أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ إِنَّمَا هِيَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأنفال: ٦٠].

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/ ٢١٥).

قُوَّةُ الْقَلْبِ، وَقُوَّةُ الرُّوحِ، وَعَزِيمَةُ النَّفْسِ، فَهِيَ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَرْءَ فِي الْجِلَادِ عِنْدَ الْجِهَادِ لِأَنْ يَكُونَ سَابِقًا فِي مَوْطِنِ الْمَوْتِ، تَنُوشُهُ الرِّمَاحُ، وَتُمَزِّقُهُ السُّيُوفُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَنْكُصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ.

وَلَكِنَّ جَمْهَرَةً غَالِبَةً مِنْ عُلَمَائِنَا -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ- أَخَذُوا بِالْإِطْلَاقِ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ**»: قَوِيٌّ فِي بَدَنِهِ، قَوِيٌّ فِي إِيمَانِهِ، قَوِيٌّ فِي صِحَّتِهِ، قَوِيٌّ فِي يَقِينِهِ.(*).

ﮋ❁❁❁ﮊ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: مِنْ سِلْسِلَةِ: «رِحْلَةُ الْمَرَضِ وَفَضْلُ الْعَافِيَةِ» - الْمُحَاضَرَةِ الرَّابِعَةِ: «فَضْلُ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ».

يَا أَهْلَ مِصْرَ!!(١)

يَا أَهْلَ مِصْرَ قَضَىٰ العَزِيزُ(٢) بِلُطْفِهِ ... وَأَرَادَ أَمْـرًا بِـالْبِلَادِ فَكَانَـا

إِنَّ الَّـذِي أَمْرُ الْمَمَالِكِ كُلِّهَـا بِيَدَيْـهِ ... أَحْـدَثَ فِـي الْكِنَانَـةِ شَـانَا

أَبْقَـىٰ عَلَيْهَـا أَمْنَهَـا فِـي بُرْهَـةٍ ... تَرْمِـي الْعُـرُوشَ وَتَنْثُـرُ التِّيجَانَـا

وَكَسَـا الْـبِلَادَ سَـكِينَةً مِـنْ أَهْلِهَـا ... وَوَقَـىٰ مِـنَ الْفِـتَنِ الْعِبَـادَ وَصَـانَا

أَوَ مَـا تَـرَوْنَ الْأَرْضَ خُـرِّبَ نِصْـفُهَا ... وَدِيَـارُ مِصْـرٍ لَا تَـزَالُ جِنَانًـا؟!

---

(١) الأبيات للشاعر أحمد شوقي الملقب بـ(أمير الشعراء) (المتوفىٰ: ١٣٥١هـ)، من قصيدة: (الصليب الأحمر) من ديوانه «الشوقيات» (١/ ٢٧٨ - ٢٨٠)، يقول في مطلعها: (سِر يا (صَليبَ) الرِّفْقِ في ساحِ الوَغىٰ . . . وانشر عليها رحمةً وحنانا).

(٢) في «الديوان»: [يَا أَهْلَ مِصْرَ، رَمَىٰ القَضَاءُ]، وفي نسبة الإرادة للقضاء في قوله: «وَأَرَادَ أَمْرًا بِالْبِلَادِ...» سوء تعبير؛ فإن القضاء تقدير الله ﷻ، وهو من صفاته، وصفات الله ﷻ لا ينسب إليها شيء من صفات الربوبية كالمشيئة والإرادة والتدبير والملك، والصواب هنا أن يقال كما تقدم: «يَا أَهْلَ مِصْرَ، قَضَىٰ الرَّحْمَنُ بِلُطْفِهِ . . . وَأَرَادَ أَمْرًا بِالْبِلَادِ فَكَانَا»، أو نحو ذلك من العبارات التي فيها إسناد المشيئة والإرادة لله ﷻ لا إلىٰ صفاته، وانظر: «المناهي اللفظية - مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين» (٣/ ١١٤، و١٣١، رقم ٤٧٤، و٤٩٨).

يَرْعَىٰ كَرَامَتَهَا وَيَمْنَعُ حَوْضَهَا جَيْشٌ يَعَافُ الْبَغْيَ وَالْعُدْوَانَا!

كَجُنُودِ عَمْرٍو أَيْنَمَا رَكَزُوا الْقَنَا عَفُّوا يَدًا، وَمُهَنَّدًا وَسِنَانًا

إِنَّ الشُّجَاعَ هُوَ الْجَبَانُ عَنِ الْأَذَىٰ وَأَرَىٰ الْجَرِيءَ عَلَىٰ الشُّرُورِ جَبَانَا

وَعُمْدَةُ مَا يَدِينُ بِهِ سَفَاهٌ فَإِحْدَاثٌ مِنَ ابْوَابِ الْجِدَالِ(*)

لَقَدْ أَبْقَىٰ اللهُ لَنَا الْجَيْشَ الْمِصْرِيَّ -فِي هَذَا الْعَصْرِ-، فَحَفِظَ اللهُ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ إِلَىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَهُ فِيمَا يَبْقَىٰ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.(*/٢).

* **عَلَى الْجَيشِ تَقْوَى الْبِلَادُ، وَبِالْعِلْمِ تَشْتَدُّ أَرْكَانُهَا**(١):

أَرَىٰ مِصْرَ يَلْهُو بِحَدِّ السِّلَاحِ وَيَلْعَبُ بِالنَّارِ وِلْدَانُهَا(٢)

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «جَمَاعَةُ الْإِخْوَانِ الْإِرْهَابِيَّةِ» - الْجُمُعَةُ ٢٤ مِنْ صَفَر ١٤٣٥ هـ/ ٢٧/ ١٢/ ٢٠١٣م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: دَعْوَةُ الإِخْوَانِ لِلتَّوْبَةِ فِي رَمَضَانَ -الجُمُعَة ٢٥ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٦هـ/ ١٢-٦-٢٠١٥م.

(١) الأبيات لأمير الشعراء أحمد شوقي، من قصيدة: (اعتداء) من ديوانه: «الشوقيات» (١/ ٢٦٢ - ٢٦٦)، والتي نظمها شوقي لما حاول شاب متطرف اغتيال سعد باشا زغلول -رئيس الوزارة المصرية يومئذ-، فنظم هذه القصيدة تهنئة لنجاته منها، ونصيحة لأهل النزق والطيش من الشبان، التي يقول في مطلعها:

نَجَا وَتَمَاثَلَ رُبَّانُهَا وَدَقَّ الْبَشَائِرَ رُكْبَانُهَا

وَهَلَّلَ فِي الْجَوِّ قِيدُومُهَا وَكَبَّرَ فِي الْمَاءِ سُكَّانُهَا

(٢) (الولدان): الصبيان، جمع وليد.

وَرَاحَ بِغَيْرِ مَجَالِ الْعُقُولِ ... يُجِيلُ السِّيَاسَةَ غِلْمَانُهَا
وَمَا الْقَتْلُ تَحْيَا عَلَيْهِ الْبِلَادُ ... وَلَا هِمَّةُ الْقَوْلِ عُمْرَانُهَا
وَلَا الْحُكْمُ أَنْ تَنْقَضِي دَوْلَةٌ ... وَتُقْبِلَ أُخْرَىٰ وَأَعْوَانُهَا
وَلَكِنْ عَلَىٰ الْجَيْشِ تَقْوَىٰ الْبِلَادُ ... وَبِالْعِلْمِ تَشْتَدُّ أَرْكَانُهَا(*)

❊❊❊

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «اللِّجَانُ النَّوْعِيَّةُ وَالثَّوْرَةُ الْمُسَلَّحَةُ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٦هـ/ ١٤-١١-٢٠١٤م.

الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبَا قُوَّةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَنَصْرِهَا

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ جِيلَ النَّصْرِ الَّذِي يُقِيمُ الشَّرِيعَةَ لَا بُدَّ أَنْ يُحَقِّقَ أَسْبَابَ التَّمْكِينِ، وَيُحَصِّلَ مُقَوِّمَاتِهِ.

الَّذِي يَتَأَمَّلُ فِي كِتَابِ رَبِّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ يَجِدُ أَنَّ سَبَبَ التَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا هُوَ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ شَوْبِ الشِّرْكِ وَالِابْتِدَاعِ وَالْمُحْدَثَاتِ مِنَ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَوْحِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ.

فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْمُتَابَعَةِ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَذَا فَلَا تَمْكِينَ فِي الْأَرْضِ.

وَالْإِسْلَامُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، وَأَلَّا نَعْبُدَهُ تَعَالَىٰ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدُهُ بِالْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨- ١٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١].

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ اللهُ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، لَا نَعْبُدُهُ تَعَالَىٰ بِالْأُمُورِ الْمُبْتَدَعَةِ، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

إِلَهُكُمُ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ؛ أَيْ ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ الصَّالِحَ؛ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، وَهُوَ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا، وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ: لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، وَصَوَابًا عَلَىٰ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

مَتَىٰ مَا حَقَّقَتِ الْأُمَّةُ رُكْنَيِ الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ، وَأَتَتْ بِأَصْلَيْهِ مَكَّنَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا لَهَا، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ[١]: «هَذَا مِنْ وُعُودِهِ الصَّادِقَةِ، الَّتِي شُوهِدَ تَأْوِيلُهَا وَعُرِفَ مَخْبَرُهَا، فَإِنَّهُ وَعَدَ مَنْ قَامَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَنْ يَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، يَكُونُونَ هُمُ الْخُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ، وَيَكُونُونَ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي تَدْبِيرِهَا.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٥٧٣).

وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، الَّذِي فَاقَ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا، ارْتَضَاهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا.

وَنِعْمَتُهُ عَلَيْهَا بِأَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِقَامَتِهِ، وَإِقَامَةِ شَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ؛ لِكَوْنِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ مَغْلُوبِينَ ذَلِيلِينَ.

وَأَنَّهُ يُبَدِّلُهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمُ الَّذِي كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَذَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْكُفَّارِ، وَكَوْنِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلِينَ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ رَمَاهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَبَغَوْا لَهُمُ الْغَوَائِلَ، فَوَعَدَهُمُ اللهُ هَذِهِ الْأُمُورَ وَقْتَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَهِيَ لَمْ تُشَاهِدِ الِاسْتِخْلَافَ فِي الْأَرْضِ، وَالتَّمْكِينَ فِيهَا، وَالتَّمْكِينَ مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْأَمْنَ التَّامَّ، بِحَيْثُ يَعْبُدُونَ اللهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَخَافُونَ إِلَّا اللهَ.

فَقَامَ صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِمَا يَفُوقُونَ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، فَمَكَّنَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَفُتِحَتْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَحَصَلَ الْأَمْنُ التَّامُّ وَالتَّمْكِينُ التَّامُّ».

حَتَّىٰ وَقَفَ وَاقِفُهُمْ مِنْ مُجَاهِدِيهِمْ عَلَىٰ فَرَسِهِ عَلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ يُخَاطِبُ أَمْوَاجَهُ، وَيُنَاجِي مَا هُنَالِكَ مِنْ مِيَاهِهِ، وَيَقُولُ: أَمَا وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَكَ أَيُّهَا الْبَحْرُ قَوْمًا لَا يَعْبُدُونَ اللهَ، لَخُضْتُكَ عَلَىٰ مَتْنِ فَرَسِي هَذَا، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحَتَّىٰ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

«هَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَجِيبَةِ الْبَاهِرَةِ، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَلَابُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ».

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُومُونَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؟!!

إِذَا كَانَ الَّذِي يَتَوَسَّلُونَ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ الطَّالِحِ! وَمِمَّا لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَلَا يَرْضَاهُ!!

مَنِ الَّذِي يُنْصَرُ؟!

صَاحِبُ الْإِيمَانِ، صَاحِبُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَصَاحِبُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

مَنْ أَقَامَ الشَّرْعَ عَلَىٰ نَفْسِهِ كَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، رُبُّوا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، احْتَرَقَتْ بِدَايَاتُهُمْ، فَأَنَارَتْ نِهَايَاتُهُمْ، وَكَانُوا بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ مُسْتَقِيمِينَ، مُوَحِّدِينَ، مُتَسَنِّنِينَ، وَكَذَا كَانَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْوَعْدُ قَائِمٌ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

«لَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ، وَإِنَّمَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ وَيُدَالُ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ؛ بِسَبَبِ إِخْلَالِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ».

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ -التَّمْكِينِ وَالسَّلْطَنَةِ التَّامَّةِ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ- فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَفَسَقُوا(١)؛ فَلَمْ يُصْلِحُوا

---

(١) في بعض النسخ: [وفسدوا].

الصَّالِحَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَهْلِيَّةٌ لِلْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَتْرُكُ الْإِيمَانَ فِي حَالِ عِزِّهِ وَقَهْرِهِ وَعَدَمِ وُجُودِ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ نِيَّتِهِ وَخُبْثِ طَوِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا دَاعِيَ لَهُ لِتَرْكِ الدِّينِ إِلَّا ذَلِكَ، إِلَّا خُبْثُ النِّيَّةِ وَسُوءُ الطَّوِيَّةِ!!

تَأَمَّلْ كَيْفَ مَكَّنَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلنَّبِيِّينَ مِمَّنْ أَعْلَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ شَأْنَهُمْ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٤- ٥٧].

هَذَا التَّمْكِينُ الَّذِي مَكَّنَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِيُوسُفَ كَانَ لِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، حَيْثُ قَالَ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- عَلَىٰ لِسَانِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٧- ٤٠].

دَعْوَةٌ لِلتَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُمَكِّنُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْأَرْضِ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ» - الْجُمُعَةُ ٢ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٣هـ الْمُوَافِقُ ٢٢-٦-٢٠١٢م.

مِنْ عَوَامِلِ قُوَّةِ بِنَاءِ الدُّوَلِ تَجَنُّبُ أَسْبَابِ سُقُوطِهَا وَهَلَاكِهَا

فَإِنَّ سُقُوطَ الدُّوَلِ وَالْمَمَالِكِ مِثْلُ قِيَامِهَا، خَاضِعٌ لِسُنَنٍ هِيَ: وِلَادَةٌ، وَطُفُولَةٌ، وَشَبَابٌ، وَكُهُولَةٌ، وَشَيْخُوخَةٌ، وَهَرَمٌ، فَمَوْتٌ، وَمِنَ الدُّوَلِ مَا يُتَوَفَّىٰ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ.

وَكَمَا يَكُونُ الْفَرْدُ عَالَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ أَهْلِهِ إِذَا كَبُرَتْ سِنُّهُ، أَوْ تَمَرَّدَ فِي سُلُوكِهِ، فَكَذَلِكَ الدُّوَلُ تَكُونُ عَالَةً عَلَىٰ الْعَالَمِ، وَأَدَاةَ تَدْمِيرٍ لِذَاتِهَا إِذَا شَاخَتْ أَوْ فَسَدَتْ، لِهَذَا كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ أَنْ يُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ أَيِّ دَوْلَةٍ إِذَا أَصْبَحَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلْبَقَاءِ، وَيُقَيِّدُ اللهُ مَنْ يُخْرِجُهَا مِنْ مَسْرَحِ الْكَوْنِ مِنْ دَاخِلِهَا أَوْ خَارِجِهَا.

فَمَا هِيَ أُمَّاتُ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ السِّيَاسِيِّ وَالسِّيَادِيِّ اللَّذَيْنِ هُمَا مَظْهَرُ وُجُودِ الْأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ، وَهُمَا آخِرُ مَا تَفْقِدُ مِنْ كِيَانِهَا، وَأَوَّلُ عَلَامَاتِ الْمَوْتِ الْكُبْرَىٰ؟

بِالِاسْتِقْرَاءِ تَبَيَّنَ أَنَّ عَامَّةَ الْمَمَالِكِ وَالدُّوَلِ أَشْبَهُ بِالْأَشْخَاصِ الطَّالِحِينَ لَا الصَّالِحِينَ، الصَّلَاحُ فِي الدُّوَلِ عَارِضٌ كَالْأَفْرَادِ، وَالْمُصْلِحُونَ فِيهَا لَيْسُوا مَحَلَّ تَرْحِيبٍ.

تَبْدَأُ الْأُمَمُ أَخْلَاقِيَّةً عَامِلَةً، فَإِذَا كَبُرَتْ ضَعُفَتْ أَخْلَاقُهَا مُقَابِلَ طُغْيَانٍ مَادِيٍّ، وَأَصْبَحَتْ عُدْوَانِيَّةً إِنْ كَانَتْ قَوِيَّةً، أَوْ عَمِيلَةً إِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً، وَأَصْبَحَتْ مُتْرَفَةً.

فَالدُّوَلُ تَكْبُرُ وَأَخْلَاقُهَا تَضْمُرُ، وَتَجَارِبُهَا تَنْضُجُ، وَمُمَارَسَتُهَا تَتَسَطَّحُ، وَرُقْعَتُهَا تَتَّسِعُ، وَإِنْسَانُهَا يَتَمَزَّقُ، تَتَقَوَّىٰ بِأَعْدَائِهَا، وَتُقَامِرُ بِأَبْنَائِهَا، وَيَرْتَعُ فِيهَا الْمُرْتَزَقَةُ وَالْخَوَنَةُ، وَعَادَةً يُحَاوِلُ الْأَفْرَادُ أَنْ يَخْتِمُوا حَيَاتَهُمْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ؛ رَجَاءَ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، بَيْنَمَا لَا تَكَادُ تَمُوتُ أُمَّةٌ أَوْ دَوْلَةٌ كِيَانًا لَا فَرْدًا إِلَّا بِخَاتِمَةِ سُوءٍ تَخْتَارُهَا.

وَأَهَمُّ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ، وَانْهِيَارِهَا، وَذَهَابِ رِيحِهَا: الظُّلْمُ:

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣].

وَالظُّلْمُ عُقُوبَتُهُ مُعَجَّلَةٌ، وَالظُّلْمُ الْمُعَجَّلَةُ عُقُوبَتُهُ يَشْمَلُ ظُلْمَ الْأَفْرَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا إِذَا أَصْبَحَ ظَاهِرَةً فَاشِيَةً، وَظُلْمُ الدُّوَلِ لِرَعَايَاهَا، وَيَنْدَرِجُ تَحْتَهُ الظُّلْمُ الِاجْتِمَاعِيُّ وَالسِّيَاسِيُّ وَالِاقْتِصَادِيُّ.

وَالْمُلُوكُ وَالسَّلَاطِينُ أَكْثَرُ النَّاسِ مَعْرِفَةً بِعَوَاقِبِ الظُّلْمِ الْوَخِيمَةِ، وَلَهُمْ كَلِمَاتٌ تَشْهَدُ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ التَّارِيخَ يَشْهَدُ -أَيْضًا- عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ.

وَالظُّلْمُ الَّذِي يُسْقِطُ الدُّوَلَ هُوَ الظُّلْمُ الَّذِي يُنْتِجُ الطَّبَقِيَّةَ فِي الْحَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحَالَةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَيُنْتِجُ الدِّيكْتَاتُورِيَّةَ فِي الْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ، وَعَاقِبَةَ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ، وَلِهَذَا يُرْوَىٰ: اللهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَلَوْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً.

وَأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الِاشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَقِيمُ أُمُورُهُمْ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ، وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إِثْمٍ؛ لِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً، وَالدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ، وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ ذَنْبٌ أَسْرَعَ عُقُوبَةً مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»(٢)، فَالْبَاغِي يُصْرَعُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ مَغْفُورًا لَهُ مَرْحُومًا فِي الْآخِرَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلٍ قَامَتْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمَتَىٰ لَمْ تَقُمْ بِعَدْلٍ لَمْ تَقُمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَىٰ بِهِ فِي الْآخِرَةِ.

تَأَمَّلْ حِكْمَةَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي جَعْلِ مُلُوكِ الْعِبَادِ وَأُمَرَائِهِمْ وَوُلَاتِهِمْ مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ، فَكَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ وُلَاتِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ، فَإِنِ

---

(١) «الحسبة - مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٦٣، و١٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١)، من حديث: أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَىٰ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩١٨).

اسْتَقَامُوا اسْتَقَامَتْ مُلُوكُهُمْ، وَإِنْ عَدَلُوا عَدَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ جَارُوا جَارَتْ مُلُوكُهُمْ وَوُلَاتُهُمْ، وَإِنْ ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فَوُلَاتُهُمْ كَذَلِكَ، وَإِنْ مَنَعُوا حُقُوقَ اللهِ لَدَيْهِمْ وَبَخِلُوا بِهَا مَنَعَتْ مُلُوكُهُمْ وَوُلَاتُهُمْ مَا لَهُمْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَبَخِلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ.

وَإِنْ أَخَذُوا مِمَّنْ يَسْتَضْعِفُونَهُ مَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ فِي مُعَامَلَتِهِمْ أَخَذَتْ مِنْهُمُ الْمُلُوكُ مَالَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمُكُوسَ وَالْوَظَائِفَ، وَكُلُّ مَا يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنَ الضَّعِيفِ يَسْتَخْرِجُهُ الْمُلُوكُ مِنْهُمْ بِالْقُوَّةِ، فَعُمَّالُهُمْ ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ أَعْمَالِهِمْ.

وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنْ يُوَلَّىٰ عَلَى الْأَشْرَارِ الْفُجَّارِ إِلَّا مَنْ يَكُونُ مِنْ جِنْسِهِمْ، وَلَمَّا كَانَ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ خِيَارَ الْقُرُونِ وَأَبَرَّهَا كَانَتْ وُلَاتُهُمْ كَذَلِكَ، فَلَمَّا شَابُوا شِيبَتْ لَهُمُ الْوُلَاةُ.

فَحِكْمَةُ اللهِ تَأْبَىٰ أَنْ يُوَلَّىٰ عَلَيْنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَزْمَانِ مِثْلَ مُعَاوِيَةَ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَضْلًا عَنْ مِثْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، بَلْ وُلَاتُنَا عَلَىٰ قَدْرِنَا، وَوُلَاةُ مَنْ قَبْلَنَا عَلَىٰ قَدْرِهِمْ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مُوجَبُ الْحِكْمَةِ وَمُقْتَضَاهَا.

وَمَنْ لَهُ فِطْنَةٌ إِذَا سَافَرَ بِفِكْرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ رَأَىٰ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ سَائِرَةً فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً فِيهِ كَمَا فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ سَوَاءً، فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِظَنِّكَ الْفَاسِدِ أَنَّ شَيْئًا مِنْ أَقْضِيَتِهِ وَأَقْدَارِهِ عَارٍ عَنِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، بَلْ جَمِيعُ أَقْضِيَتِهِ تَعَالَىٰ وَأَقْدَارِهِ وَاقِعَةٌ عَلَىٰ أَتَمِّ وُجُوهِ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ، لَكِنَّ الْعُقُولَ الضَّعِيفَةَ مَحْجُوبَةٌ بِضَعْفِهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا، كَمَا أَنَّ الْأَبْصَارَ الْخُفَّاشِيَّةَ مَحْجُوبَةٌ بِضَعْفِهَا عَنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ.

وَهَذِهِ الْعُقُولُ الصِّغَارُ إِذَا صَادَفَهَا الْبَاطِلُ جَالَتْ فِيهِ، وَصَالَتْ وَنَطَقَتْ وَقَالَتْ، كَمَا أَنَّ الْخُفَّاشَ إِذَا صَادَفَهُ ظَلَامُ اللَّيْلِ طَارَ وَسَارَ!!

خَفَافِيشُ أَعْشَاهَا النَّهَارُ بِضَوْئِهِ وَلَازَمَهَا قِطَعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمُ(١)

*** وَمِنْ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ: كَثْرَةُ الْمُنْتَفِعِينَ الْفَاسِدِينَ:**

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٦- ٣٩].

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

إِنَّهَا أَقْوَالُ كَتَائِبَ مِنَ الْمُرْتَزَقَةِ الْفَاسِدِينَ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: الْمُجَاهَرَةُ بِأُحَادِيَّةِ الرَّأْيِ، وَانْعِدَامُ الرَّأْيِ الْآخَرِ الْفَاعِلِ:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

*** وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ انْهِيَارِ الدُّوَلِ: التَّفَرُّقَةُ وَالِاخْتِلَافُ، وَتَرْكُ الِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:**

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَبَابُ الْفَسَادِ الَّذِي وَقَعَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَلْ فِي غَيْرِهَا هُوَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ، فَإِنَّهُ وَقَعَ بَيْنَ أُمَرَائِهَا وَعُلَمَائِهَا مِنْ مُلُوكِهَا، وَمَشَايِخِهَا وَغَيْرِهِمْ مِنَ ذَلِكَ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ»(٢).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥٣ - ٢٥٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٦٠).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ الْجَلِيلِ(٢): «أَمَّا الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ فَهُوَ التَّمَسُّكُ بِعَهْدِهِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَحُدُودِهِ، وَالتَّأَدُّبُ بِأَدَبِهِ.

*** وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: ظُهُورُ الْإِلْحَادِ، وَالنِّفَاقِ، وَالْبِدَعِ:**

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(٣): «وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ هَؤُلَاءِ -يُرِيدُ مَنْ تَسَلَّطَ عَلَىٰ الْأُمَّةِ مِنَ التَّتَارِ وَالصَّلِيبِيِّينَ- كَانَ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ هَؤُلَاءِ دِيَارَ الْمُسْلِمِينَ: ظُهُورُ الْإِلْحَادِ وَالنِّفَاقِ وَالْبِدَعِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ صَنَّفَ الرَّازِي بَابًا فِي عِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ وَعَمَلِ السِّحْرِ، سَمَّاهُ: السِّرُّ الْمَكْتُومُ فِي السِّحْرِ وَمُخَاطَبَةِ النُّجُومِ!!».

قَالَ: «فَالِاسْتِخْفَافُ وَالسُّخْرِيَةُ بِالدِّينِ، وَتَقْدِيمُ الْعَوَائِدِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ، قَالَ تَعَالَىٰ ذَاكِرًا مَا كَانَ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/ ١١).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ١٨٠).

وَلَمَّا دَاهَمَ التَّتَارُ أَهْلَ الشَّامِ، خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ لِمُوَاجَهَتِهِمْ وَكَانَتْ فِيهِمْ شِرْكِيَّاتٌ، فَجَعَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يُصَحِّحُ عَقِيدَتَهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ فِي رَدِّهِ عَلَىٰ الْبَكْرِيِّ الْمَطْبُوعِ بِاسْمِ: «تَلْخِيصُ كِتَابِ الِاسْتِغَاثَةِ»[(١)] .

وَكَانَ بَعْضُ الْأَكَابِرِ مِنَ الشُّيُوخِ الْعَارِفِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا يَقُولُ: هَذَا أَعْظَمُ مَا بَيَّنْتَهُ لَنَا؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ هَذَا أَصْلُ الدِّينِ، فَكَانَ هَذَا وَأَمْثَالُهُ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ يَدْعُونَ الْأَمْوَاتَ، وَيَسْأَلُونَهُمْ، وَيَسْتَجِيرُونَ بِهِمْ، وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِمْ.

وَرُبَّمَا كَانَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأَمْوَاتِ أَعْظَمَ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ الْمَيِّتَ فِي ضَرُورَةٍ نَزَلَتْ بِهِمْ، فَيَدْعُونَهُ دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ، رَاجِينَ قَضَاءَ حَاجَتِهِمْ بِدُعَائِهِ، وَالدُّعَاءِ بِهِ أَوِ الدُّعَاءِ عِنْدَ قَبْرِهِ، بِخِلَافِ عِبَادَتِهِمُ اللهَ تَعَالَىٰ وَدُعَائِهِمْ إِيَّاهُ، فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ عَلَىٰ وَجْهِ الْعَادَةِ وَالتَّكَلُّفِ، حَتَّىٰ إِنَّ الْعَدُوَّ الْخَارِجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ لَمَّا قَدِمَ دِمَشْقَ، خَرَجُوا يَسْتَغِيثُونَ بِالْمَوْتَىٰ عِنْدَ الْقُبُورِ الَّتِي يَرْجُونَ عِنْدَهَا كَشْفَ ضُرِّهِمْ!! وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

يَا خَائِفِينَ مِنَ التَّتَرْ ... لُوذُوا بِقَبْرِ أَبِي عُمَرْ

يُنْجِيكُمُ مِنَ الضَّرَرِ».

ثُمَّ قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- بَعْدَ كَلَامِهِ الَّذِي سَبَقَ[(٢)]: «فَلَمَّا أَصْلَحَ النَّاسُ أُمُورَهُمْ وَصَدَقُوا فِي الِاسْتِغَاثَةِ بِرَبِّهِمْ نَصَرَهُمُ اللهُ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ نَصْرًا عَزِيزًا، وَلَمْ

---

(١) «تلخيص كتاب الاستغاثة» (٢/ ٧٣١ - ٧٣٣).

(٢) «تلخيص كتاب الاستعاثة» (٢/ ٧٣٨).

تُهْزَمِ التَّتَارُ مِثْلَ هَذِهِ الْهَزِيمَةِ قَبْلَ ذَلِكَ أَصْلًا؛ لِمَا صَحَّ مِنْ تَحْقِيقِ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّهُ لَا تَمْكِينَ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ الدِّينُ الصَّحِيحُ مِنَ النُّفُوسِ، وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

فَتَأَمَّلْ قَوْلَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «تَحْقِيقِ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ»؛ تَفْهَمْ سَبَبَ اشْتِرَاطِ الْعُلَمَاءِ التَّوْحِيدَ للهِ تَعَالَىٰ، وَالْمُتَابَعَةَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ النَّصْرِ، وَأَنَّهُ لَا يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ عَنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ إِلَّا مِيكْيَافِلِيٌّ قَدْ أُشْرِبَ قَلْبُهُ الْقَاعِدَةَ الْيَهُودِيَّةَ: «الْغَايَةُ تُبَرِّرُ الْوَسِيلَةَ!!»، وَاللهُ تَعَالَىٰ الْعَاصِمُ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمُحَادَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمُشَاقَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمُحَارَبَةِ دِينِهِ بِالْإِلْحَادِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِهِ، وَبِالْإِزْرَاءِ بِالدِّينِ وَقَوَاعِدِهِ وَثَوَابِتِهِ وَأُصُولِهِ، وَبِالطَّعْنِ فِي الرَّسُولِ، وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَفِي الصَّحَابَةِ، وَفِي الْعُلَمَاءِ، وَالتَّابِعِينَ، وَكُلِّ الصَّالِحِينَ؟!!

فَكَيْفَ يُؤَمِّلُ قَوْمٌ نَصْرَ رَبِّهِمْ وَهُمْ يُعَامِلُونَهُ هَذِهِ الْمُعَامِلَةَ؟!!

وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!!

*** وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الْأُمَمِ: قَابِلِيَّةُ الشَّعْبِ لِلِاسْتِخْفَافِ، وَفَسَادُ إِرَادَتِهِمْ:**

قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: تَكْرِيسُ الطَّبَقِيَّةِ، وَفَرْضُهَا وَاقِعًا:

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود: ٢٧].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥- ٧٦].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: مُوَاجَهَةُ الْمُصْلِحِينَ، وَمُحَارَبَةُ الْقِيَمِ:

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣].

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

وَغُرْبَةُ النَّاصِحِينَ، وَتَشْوِيهِهِمْ:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٣- ٥٤].

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥].

وَمِنَ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ أَنَّ مَرَضَ أُمَّةٍ مَا هُوَ مَرَضُ مَوْتِهَا الِاسْتِغْنَاءُ بِالْإِمْكَانَاتِ الْمَادِيَّةِ قَوْلُه تَعالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥].

وَالِاسْتِهَانَةُ بِالْعُقُوبَاتِ الْقَدَرِيَّةِ عَلَىٰ الذُّنُوبِ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: الْعَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ الْعَمْيَاءُ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «يَقَعُ كَثِيرًا فِي الرُّؤَسَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْحَاضِرَةِ إِذَا اسْتَجَارَ بِهِمْ مُسْتَجِيرٌ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا قَرَابَةٌ أَوْ صَدَاقَةٌ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ وَالسُّمْعَةَ عِنْدَ الْأَوْبَاشِ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَهُ، وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا مُبْطِلًا، يَنْصُرُونَهُ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمَظْلُومِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَظْلُومُ رَئِيسًا يُنَادِيهِمْ وَيُنَاوِيهِمْ، فَيَرَوْنَ فِي تَسْلِيمِ الْمُسْتَجِيرِ بِهِمْ إِلَىٰ مَنْ يُنَاوِيهِمْ ذُلًّا أَوْ عَجْزًا.

وَهَذَا(٢) جَاهِلِيَّةٌ مَحْضَةٌ، وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ فَسَادِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ سَبَبُ كَثِيرٍ مِنْ حُرُوبِ الْأَعْرَابِ كَحَرْبِ الْبَسُوسِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ بَنِي بَكْرٍ، وَتَغْلِبَ إِلَىٰ نَحْوِ هَذَا.

وَكَذَلِكَ سَبَبُ دُخُولِ التُّرْكِ وَالْمَغُولِ دَارَ الْإِسْلَامِ، وَاسْتِيلَاؤُهُمْ عَلَىٰ مُلُوكِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَخُرَاسَانَ، كَانَ سَبَبُهُ نَحْوَ هَذَا.

---

(١) «السياسة الشرعية - مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) في المطبوع زيادة: [-عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ-].

* وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: الْجَهْلُ:

وَالْجَاهِلُ عَدُوُّ نَفْسِهِ، وَهُوَ حَرْبٌ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَوَطَنِهِ، وَإِذَا تَفَشَّىٰ الْجَهْلُ فِي مُجْتَمَعٍ، تَخَالَفَتْ وِجْهَاتُ أَبْنَائِهِ، وَتَصَارَعَتْ رَغَبَاتُهُمْ، وَتَقَدَّمَتِ الْمَصَالِحُ الذَّاتِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ عَلَىٰ الْمَصَالِحِ الْعُلْيَا لِلْأُمَّةِ، وَتَهَارَجَ الْجُهَّالُ تَهَارُجَ الْحُمُرِ، وَكَانَ الْجَهْلُ سَبَبًا لِمَزِيدِ ضَعْفِهِمْ، وَذَهَابِ الْبَقِيَّةِ مِنْ قُوَّتِهِمْ، وَنُزُولِ الْبَلَاءِ، وَحُلُولِ الظُّلْمِ بِهِمْ.

لَا تَعْجَبُوا لِلظُّلْمِ يَغْشَىٰ أُمَّةً ... فَتَنُوءُ مِنْهُ[1] بِفَاتِحِ[2] الْأَثْقَالِ
ظُلْمُ الرَّعِيَّةِ كَالْعِقَابِ بِجَهْلِهَا[3] ... أَلَمُ الْمَرِيضِ عُقُوبَةُ الْإِهْمَالِ[4](*)

---

(١) نَاءَ بالشيء: نهض به مثقلا.

(٢) في المطبوع: [بِفَادِحِ]، والفادح: الثقيل.

(٣) في المطبوع: [لِجَهْلِهَا].

(٤) الأبيات للشاعر الأديب المصري محمد بن علي الملقب بتوفيق البكري الصديقي العمري (المتوفىٰ: ١٣٥١هـ) مؤسس أول مجمع للغة العربية في العصر الحديث، من قصيدة بعنوان: (شذور) من كتابه: «صهاريج اللؤلؤ» (ص ٢٠٩ - ٢١٤، مطبعة الهلال)، يقول في مطلع قصيدته:

وَفِي وُسْعَةِ الْمَرْءِ نَيْلُ الْعُلَا ... وَقَدْ يَمْنَعُ الْمَرْءَ مَا يَمْنَعُ
صَغِيرٌ مِنَ الْأَمْرِ يُلْهِيهِ عَنْ ... بُلُوغِ الْعَظَائِمِ أَوْ يَقْطَعُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «أَسْبَابُ انْهِيَارِ الدُّوَلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ/ ٢٣-٦-٢٠١٧م.

*** وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ: الِانْهِيَارُ الْأَخْلَاقِيُّ:**

إِنَّ الْمُجْتَمَعَ إِذَا مَا انْهَارَتْ أَخْلَاقُهُ، وَإِذَا مَا سَقَطَتْ أَخْلَاقُهُ فِي الْحَمْئَةِ الْوَبِيلَةِ، الْمُجْتَمَعُ إِذَا ظَهَرَتْ فِيهِ الْفَاحِشَةُ؛ فَكَبِّرْ عَلَيْهِ أَرْبَعًا، الْمُجْتَمَعُ لَا يُحَارَبُ بِمِثْلِ مَا يُحَارَبُ بِنَشْرِ الْفَاحِشَةِ وَالرَّذِيلَةِ بَيْنَ أَبْنَائِهِ.

فَإِذَا انْهَارَتِ الْأَخْلَاقُ؛ انْهَارَ الْمُجْتَمَعُ لَا مَحَالَةَ.(*).

*** وَمِنْ أَسْبَابِ سُقُوطِ الدُّوَلِ وَهَدْمِ الْمُجْتَمَعَاتِ: الْإِشَاعَاتُ:**

تُعَدُّ الْإِشَاعَاتُ مِنْ أَهَمِّ أَسَالِيبِ وَوَسَائِلِ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ بِفَاعِلِيَّةٍ وَقْتَ الْحَرْبِ، وَكَذَلِكَ وَقْتَ السِّلْمِ فِيمَا يُعْرَفُ بِالْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، وَتَتَمَيَّزُ بِشِدَّةِ تَأْثِيرِهَا عَلَىٰ عَوَاطِفِ الْجَمَاهِيرِ وَقُدْرَتِهَا الْكَبِيرَةِ عَلَىٰ الِانْتِشَارِ وَفَاعِلِيَّتِهَا الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَبْدَأُ مُنْذُ وُصُولِهَا إِلَىٰ الْمَكَانِ الْمُوَجَّهَةِ إِلَيْهِ.

فَالْإِشَاعَةُ مِنْ أَخْطَرِ الْأَسْلِحَةِ الْفَتَّاكَةِ وَالْمُدَمِّرَةِ لِلْأَشْخَاصِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، وَلِلْإِشَاعَةِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ تَفْتِيتِ الصَّفِّ الْوَاحِدِ وَالرَّأْيِ الْوَاحِدِ وَتَوْزِيعِهِ وَبَعْثَرَتِهِ.(*/٢).

وَالسَّبَبُ الْجَامِعُ لِلْأَسْبَابِ كُلِّهَا هُوَ: الْمَعَاصِي، وَمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الْعِبَادِ:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «الْحَرْبُ بِالْفَوَاحِشِ» - الْجُمُعَةُ ٢٢ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٢٨هـ/ ٨/ ٦/ ٢٠٠٧م، باختصار.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «الْإِشَاعَاتُ وَهَدْمُ الْمُجْتَمَعَاتِ» - الْجُمُعَةُ ٢٩ مِنْ رَجَب ١٤٣٧هـ/ ٦-٥-٢٠١٦م.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «لَا سَبَبَ لِلشَّرِّ إِلَّا ذُنُوبُ الْعِبَادِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وَالْمُرَادُ بِالسَّيِّئَاتِ مَا يَسُوءُ الْعَبْدَ مِنَ الْمَصَائِبِ، وَبِالْحَسَنَاتِ مَا يَسُرُّهُ مِنَ النِّعَمِ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فَالنِّعَمُ وَالرَّحْمَةُ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ مِنَ اللهِ فَضْلًا وَجُودًا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ حَقٌّ لِعِبَادِهِ، فَذَلِكَ الْحَقُّ هُوَ أَحَقَّهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْمَخْلُوقِ، بَلْ مِنْ جِهَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالْمَصَائِبُ بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْعِبَادِ وَكَسْبِهِمْ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

وَالْانْهِيَارُ الْأَخْلَاقِيُّ، وَالْفَسَادُ الْمَالِيُّ وَالْإِدَارِيُّ يَسْتَجْلِبَانِ النِّقَمَ الْوَاقِعَةَ فِي الْأُمَّةِ -وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا-.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللهِ**»[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٤٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ رقم ٤٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ رقم ٢٢٦١)، واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٧/ رقم ٥٠٣٣، ٥١٤٣)، من طريق: عَمْرِو بْنِ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللهِ**».
=

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ تُغَيِّرُ، وَلَا بُدَّ وَأَنَّ ضَرَرَهَا عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَضَرَرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِي الضَّرَرِ، وَهَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا وَسَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي؟!!

فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ دَارَ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ، والسُّرُورِ وَالْبَهْجَةِ إِلَىٰ دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَصَائِبِ؟!!

=

وقد اضطرب سماك في هذا الحديث؛ فقال أبو حاتم كما في «العلل» (٦/ رقم ٢٧٩٦): «لَيْسَ هُوَ مِنْ حديثِ: عِكرِمَة، عَنِ ابْنِ عبَّاس؛ إِنَّمَا هو: سِماك، عن عبد الرحمن بن عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ»؛

فأخرجه أحمد في (٣٨٠٩)، وأبو يعلىٰ (٤٩٨١)، وابن حبان (٤٤١٠)، من طريق: شَرِيكٍ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مرفوعا، بلفظ: «**مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزِّنَا، إِلَّا أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عِقَابَ اللهِ ﷻ**».

وشريك بن عبد الله النخعي: سيئ الحفظ، انظر: «الميزان» (٢/ رقم ٣٦٩٧)، وتفرد برفعه، وخالفه أبو الأحوص سَلَّامُ بْنُ سُلَيْمٍ فرواه موقوفا وهو الأشبه؛

فأخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (رقم ٩، دار ابن حزم، بيروت)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٧٥)، من طريق: أبي الأحوص، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أُذِنَ بِهَلَاكِهَا**»، موقوفا.

وأخرجه أيضا موقوفا؛ المروزي في «السنة» (٢٠٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ رقم ١٠٣٢٩)، والداني في «الفتن» (رقم ٣٢١)، من طريق: الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي سَلْمَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «**مَا هَلَكَ أَهْلُ نُبُوَّةٍ حَتَّىٰ يَفْشُوَ فِيهِمُ الرِّبَا وَالزِّنَا**».

والأثر بمجموع هذين الطريقين صحيح موقوف، والله أعلم.

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةً وَأَشْنَعَهَا، وبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ، وَبُدِّلَ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلَظَّىٰ، وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا، وَبِمُوَالَاةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ أَعْظَمَ عَدَاوَةٍ وَمُشَاقَّةٍ، وَبِزَجَلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ زَجَلَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْفُحْشِ، وَبِلِبَاسِ الْإِيمَانِ لِبَاسَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ؟!

فَهَانَ عَلَىٰ اللهِ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ غَايَةَ السُّقُوطِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ فَأَهْوَاهُ، وَمَقَتَهُ أَكْبَرَ الْمَقْتِ فَأَرْدَاهُ، فَسَارَ قَوَّادًا لِكُلِّ فَاسِقٍ وَمُجْرِمٍ، رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَالسِّيَادَةِ -فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ-.

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّىٰ عَلَا الْمَاءُ فَوْقَ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟!!

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ عَلَىٰ قَوْمِ عَادٍ حَتَّىٰ أَلْقَتْهُمْ مَوْتَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، وَدَمَّرَتْ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ، وَدَوَابِّهِمْ حَتَّىٰ صَارُوا عِبْرَةً لِلْأُمَمِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟!!

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَىٰ قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّىٰ قَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ، وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟!!

وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَىٰ اللُّوطِيَّةِ حَتَّىٰ سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ

أَمْطَرَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ مَالَمْ يَجْمَعْهُ عَلَىٰ أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ، وَلِإِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ؟!!

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَىٰ قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظُّلَلِ، فَلَمَّا سَارُوا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ نَارًا تَلَظَّىٰ؟!!

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ نَقَلَ أَرْوَاحَهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ، فَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ، وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرْقِ؟!!

وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ، وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ؟!!

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا؟!!

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ (يَاسِينَ) بِالصَّيْحَةِ حَتَّىٰ خَمَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟!!

وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَقَتَّلُوا الرِّجَالَ، وَسَبَوُا الذُّرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَأَحْرَقُوا الدِّيَارَ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَأَهْلَكَهُمْ، وَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا؟!

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، مَرَّةً بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَخَرَابِ الْبِلَادِ، وَمَرَّةً بِجَوْرِ الْمُلُوكِ، وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»(١) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: «حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُصُ، فَفُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا؛ بَكَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، رَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ! مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟

فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ!! مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَىٰ اللهِ ﷻ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ؛ تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ، فَصَارُوا إِلَىٰ مَا تَرَىٰ».

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ فِي «مُسْنَدِهِ»(٢): «أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّىٰ يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**»، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي «الْمُسْنَدِ»(٣) بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَىٰ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ عَلَىٰ قَصْعَتِهَا**».

---

(١) «الزهد» لأحمد (رقم ٧٦٣)، وأخرجه أيضا سعيد بن منصور في «سننه» (رقم ٢٦٦٠)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (رقم ٢)، وغيرهم بإسناد صحيح.

(٢) «مسند ابن الجعد» (رقم ١٢٨)، وأخرجه أيضا ابن المبارك في «الزهد» (رقم ١٣٤٨)، ووكيع في «الزهد» (رقم ٢٩٠)، وأحمد في «مسنده» (١٨٢٨٩، و٢٢٥٠٦)، وأبو داود في «سننه» (٤٣٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٣١).

(٣) «مسند أحمد» (٢٢٣٩٧)، وأخرجه أيضا أبو داود في «سننه» (٤٢٩٧)، وَصَحَّحَهُ بِمَجْمُوعِ طُرُقِهِ الْأَلْبَانِيُّ في «الصحيحة» (٩٥٨).

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟

قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ؛ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ**».

قَالُوا: وَمَا الْوَهْنُ؟

قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ**».

وَفِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ»(١) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي؛ عَمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ**».

قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَمَا فِيهِمْ -يَوْمَئِذٍ- أُنَاسٌ صَالِحُونَ؟

قَالَ: «**بَلَىٰ**».

قُلْتُ: فَكَيْفَ يُصْنَعُ بِأُولَئِكَ؟

قَالَ: «**يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**».

فِي سَنَدِهِ: لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، وَهُوَ «ضَعِيفٌ»؛ لَكِنْ لَهُ شَوَاهِدُ تُثَبِّتُهُ كَمَا فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

---

(١) «مسند أحمد» (٢٦٥٩٦)، وأخرجه أيضا الطبراني في «الكبير» (٢٣/ رقم ٧٤٧)، من طريق: لَيْثٍ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ، عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ، تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ**»، ... الحديث.

وَدَفْعُ الْهَلَاكِ عَنِ الْقُرَىٰ وَالْمُدُنِ لَا يَكُونُ بِوُجُودِ الصَّالِحِينَ غَيْرِ الْمُصْلِحِينَ، بَلْ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِ الْمُصْلِحِينَ، فَالصَّالِحُ لَا يَتَعَدَّىٰ صَلَاحُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَأَمَّا الْمُصْلِحُ؛ فَهُوَ صَالِحٌ فِي ذَاتِهِ، وَيَتَعَدَّىٰ صَلَاحُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وَلَمْ يَقُلْ: «وَأَهْلُهَا صَالِحُونَ».

وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ فِي مُلْكِ اللهِ -وَكُلُّ شَيْءٍ مُلْكٌ للهِ- إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَمَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنْ نَكَبَاتٍ هُوَ نَتِيجَةُ أَعْمَالِهِمْ، وَاللهُ حَكَمٌ عَدْلٌ، فَهُمْ يَعِيشُونَ تَحْتَ رَحْمَةِ حَسَنَاتِهِمْ، أَوْ نِقْمَةِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَكُلَّمَا اسْتَقَامَ الْعَبْدُ عَلَىٰ شَرْعِ اللهِ؛ اِسْتَقَامَتْ لَهُ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَضُرُّهُ؛ فَضْلًا عَنِ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَيَسَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ كُلَّ عَسِيرٍ، وَخَدَمَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَكَثُرَتْ فِي مُجْتَمَعِهِ الْخَيْرَاتُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وَقَالَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَقَالَ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وَقَالَ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وَقَالَ: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤].

وَقَالَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ -وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ-: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّىٰ يُعْلِنُوا بِهَا؛ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ (١).

هَكَذَا تَفْعَلُ الذُّنُوبُ، مَا حَلَّتْ نُذُرُهَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ إِلَّا سَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ، فَانْكَشَفُوا عَنْ عَدُوٍّ أَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ، وَاجْتَنَحَ أَرْزَاقَهُمْ، وَاسْتَبَاحَ

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه لغيره الألباني في «الصحيحة» (١٠٦).

حُرُمَاتِهِمْ، وَقَيَّدَ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَفَعَلَ بِهِمْ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ عَلَىٰ قَدْرِ مَا أَصَابُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَفَاتَهُمْ مِنَ الْمَسَرَّاتِ بِحَسَبِ مَا فَوَّتُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَالرَّبُّ حَكَمٌ عَدْلٌ، وَبِهِ الْمُسْتَعَانُ.

وَالْعُقُوبَاتُ قِسْمَانِ:

١ - **عُقُوبَاتٌ قَدَرِيَّةٌ**، وَهِيَ: مَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنْ فَقْرٍ وَقَحْطٍ وَغَلَاءٍ لِلْأَسْعَارِ، وَجَوْرٍ فِي السُّلْطَانِ، وَتَسْلِيطٍ لِلْأَعْدَاءِ، وَفَسَادٍ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَفِقْدَانٍ لِطَعْمِ الْحَيَاةِ، وَالزَّلَازِلِ وَالْفَيَضَانَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْخَسْفِ وَغَيْرِهَا.

فَأَمَّا عُقُوبَتُهُمْ بِالْفَقْرِ وَالْقَحْطِ، وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ؛ فَبِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وَأَمَّا عُقُوبَتُهُمْ بِفَسَادِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ؛ فَكَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وَأَمَّا عُقُوبَتُهُمْ بِالْفَيَضَانَاتِ وَالْخَسْفِ وَغَيْرِهَا؛ فَكَمَا قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وَأَدِلَّةُ هَذَا الْبَابِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ لَا تَكَادُ تَخْفَىٰ.

وَأَشَدُّ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا: أَنْ يُعَاقَبُوا بِسَلْبِ الْإِيمَانِ وَالْهُدَىٰ، وَعَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِالْعِلْمِ:

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(١): «وَمَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ وَمَبْدَئِهِ؛ يَعْرِفُ أَنَّ جَمِيعَ الْفَسَادِ فِي جَوِّهِ وَنَبَاتِهِ وَحَيَوَانِهِ وَأَحْوَالِ أَهْلِهِ حَادِثٌ بَعْدَ خَلْقِهِ بِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ حُدُوثَهُ، وَلَمْ تَزَلْ أَعْمَالُ بَنِي آدَمَ وَمُخَالَفَتُهُمْ لِلرُّسُلِ تُحْدِثُ لَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ مَا يَجْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآلَامِ، وَالْأَمْرَاضِ، وَالْأَسْقَامِ، وَالطَّوَاعِينِ، وَالْقُحُوطِ، وَالْجُدُوبِ، وَسَلْبِ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَثِمَارِهَا، وَنَبَاتِهَا، وَسَلْبِ مَنَافِعِهَا، أَوْ نُقْصَانِهَا أُمُورًا مُتَتَابِعَةً يَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا، فَإِنْ لَمْ يَتَّسِعْ عِلْمُكَ لِهَذَا فَاكْتَفِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وَنَزِّلْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْعَالَمِ، وَطَابِقْ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَبَيْنَهَا، وَأَنْتَ تَرَىٰ كَيْفَ تَحْدُثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلَّ وَقْتٍ فِي الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْحَيَوَانِ، وَكَيْفَ يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخَرُ مُتَلَازِمَةٌ، بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٣٣٢ - ٣٣٤).

وَكُلَّمَا أَحْدَثَ النَّاسُ ظُلْمًا وَفُجُورًا؛ أَحْدَثَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ، وَفَوَاكِهِهِمْ، وَأَهْوِيَتِهِمْ، وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ، وَخَلْقِهِمْ، وَصُوَرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ، وَأَخْلَاقِهِمْ مِنَ النَّقْصِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ مُوجَبُ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمْ.

وَلَقَدْ كَانَتِ الْحُبُوبُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ، كَمَا كَانَتْ أَعْظَمَ، وَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ وُجِدَ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ صُرَّةٌ فِيهَا حِنْطَةٌ أَمْثَالُ نَوَىٰ التَّمْرِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: «هَذَا كَانَ يَنْبُتُ أَيَّامَ الْعَدْلِ»(١).

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا فِي «مُسْنَدِهِ» عَلَىٰ إِثْرِ حَدِيثٍ رَوَاهُ.

وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الْعَامَّةِ بَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَتْ بِهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ، ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، حُكْمًا قِسْطًا، وَقَضَاءً عَدْلًا، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ هَذَا بِقَوْلِهِ فِي الطَّاعُونِ: «**إِنَّهُ بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»(٢).

وَكَذَلِكَ سَلَّطَ اللهُ تَعَالَىٰ الرِّيحَ عَلَىٰ قَوْمٍ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَبْقَىٰ فِي الْعَالَمِ مِنْهَا بَقِيَّةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، وَفِي نَظِيرِهَا عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ.

---

(١) «مسند أحمد» (٧٩٤٩)، وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٦٤)، والدوري في «تاريخ ابن معين» (٤/ رقم ٣٨٩٧)، بإسناد صحيح، عَنْ عَوْفٍ الْأَعْرَابِيِّ، عَنْ أَبِي قَحْذَمٍ، قَالَ: «وُجِدَ فِي زَمَنِ زِيَادٍ أَوِ ابْنِ زِيَادٍ صُرَّةٌ فِيهَا حَبٌّ أَمْثَالُ النَّوَىٰ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ: «**هَذَا نَبَتَ فِي زَمَانٍ كَانَ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْعَدْلِ**»».

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٣، و ٥٧٢٨، و ٦٩٧٤)، ومسلم (٢٢١٨)، من حديث: أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَعْمَالَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ مُقْتَضِيَاتٍ لِآثَارِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اقْتِضَاءً لَا بُدَّ مِنْهُ، فَجَعَلَ مَنْعَ الْإِحْسَانِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ سَبَبًا لِمَنْعِ الْغَيْثِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْقَحْطِ، وَالْجَدْبِ، وَجَعَلَ ظُلْمَ الْمَسَاكِينِ، وَالْبَخْسِ فِي الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ، وَتَعَدِّي الْقَوِيِّ عَلَىٰ الضَّعِيفِ سَبَبًا لِجَوْرِ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ الَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ إِنِ اسْتُرْحِمُوا، وَلَا يَعْطِفُونَ إِذَا اسْتُعْطِفُوا.

وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ: أَعْمَالُ الرَّعَايَا ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ وُلَاتِهِمْ جَائِرِينَ، وَتَارَةً بِأَمْرَاضٍ عَامَّةٍ، وَتَارَةً بِهُمُومٍ وَآلَامٍ وَغُمُومٍ تُحْضِرُهَا نُفُوسُهُمْ وَلَا يَنْفَكُّونَ عَنْهَا، وَتَارَةً بِمَنْعِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَتَارَةً بِتَسْلِيطِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ تَؤُزُّهُمْ إِلَىٰ أَسْبَابِ الْعَذَابِ أَزًّا؛ لِتَحِقَّ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ، وَلِيَصِيرَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْعَاقِلُ يُسَيِّرُ بَصِيرَتَهُ بَيْنَ أَقْطَارِ الْعَالَمِ، فَيُشَاهِدُهُ، وَيَنْظُرُ مَوَاقِعَ عَدْلِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ؛ وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ الرُّسُلَ وَأَتْبَاعَهُمْ خَاصَّةً عَلَىٰ سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَأَنَّ سَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْهَلَاكِ سَائِرُونَ، وَإِلَىٰ دَارِ الْبَوَارِ صَائِرُونَ، وَاللهُ بَالِغٌ أَمْرُهُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ».

فَهَذِهِ كُلُّهَا عُقُوبَاتٌ قَدَرِيَّةٌ عَلَىٰ مَا يَقْتَرِفُهُ النَّاسُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمَا يَجْتَرِحُونَهُ مِنَ الْجَرَائِمِ وَالْآثَامِ.

٢- **وَأَمَّا الْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ**، فَهِيَ: بِأَنْ يُحَرِّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ حَلَالًا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَشْيَاءَ بِبَغْيِهِمُ الَّذِي هُوَ الظُّلْمُ، وَهِيَ: كُلُّ ذِي ظُفُرٍ مِنَ الْإِبِلِ وَمَا أَشْبَهَهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ إِلَّا مَا عَلَقَ مِنْهَا بِالظَّهْرِ وَالْأَمْعَاءِ وَالْعِظَامِ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهَا كَانَتْ حَلَالًا عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ نُسِخَتْ بِسُوءِ فَعَالِهِمْ: قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠- ١٦١].

وَمِثَالُهُ: قِصَّةُ تَعَنُّتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ اللهَ أَمَرَهُمْ فِي الْأَوَّلِ بِأَيِّ بَقَرَةٍ تَيَسَّرَتْ لَهُمْ، فَتَمَرَّدُوا عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَالْوَرَعِ الْكَاذِبِ، فَزَادَهُمُ اللهُ قُيُودًا مُضْنِيَةً.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَوْ أَخَذُوا أَدْنَىٰ بَقَرَةٍ اكْتَفَوْا بِهَا؛ لَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ كَثِيرٍ وَصَحَّحَهُ[1].

وَالْكَلَامُ عَنْ سُقُوطِ الْأُمَمِ وَانْهِيَارِهَا لَيْسَ خَاصًّا بِأُمَّةٍ بِعَيْنِهَا، وَلَا بِدِيَانَةٍ دُونَ غَيْرِهَا، بَلِ الْكَلَامُ عَنِ الْمُشْتَرَكَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ أَسْبَابًا لِنُهُوضِ الْأُمَمِ

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٠٤، و٢٠٦، رقم ١٢٣٦، و١٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٣٧، رقم ٦٩٣)، وصحح إسناده ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٩٨).

وَانْهِيَارِهَا، فَإِذَا أَخَذَتِ الْأُمَمُ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ أَوْ بَعْضِهَا؛ كَانَ التَّفَاضُلُ بَيْنَهَا، وَكَانَ عُنْصُرُ الْإِيمَانِ مُؤَثِّرًا أَعْظَمَ تَأْثِيرٍ فِي تَفَوُّقِ أَهْلِهِ إِذَا أَخَذُوا بِالْمُمْكِنِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْأُخْرَىٰ، وَإِذَا فَرَّطَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الْمُمْكِنَةِ؛ فَلَا يَلُومُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ.

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: خُطْبَةِ: «أَسْبَابُ انْهِيَارِ الدُّوَلِ» - الْجُمُعَةُ ٢٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٨هـ/ ٢٣-٦-٢٠١٧م.

الفِهْرِسُ

الْمُقَدِّمَةُ.. ٣

عَوَامِلُ قُوَّةِ بِنَاءِ الدُّوَلِ فِي نَصَائِحَ جَامِعَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ.................... ٦

التَّوْحِيدُ أَكْبَرُ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ وَعِزَّتِهَا وَنَصْرِهَا.............. ١٧

الْعَمَلُ بِأَمَانَةٍ وَاجْتِهَادٍ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ.............. ٢٥

الِاجْتِمَاعُ وَالْأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ مِنْ عَوَامِلِ بِنَاءِ الدُّوَلِ.............. ٢٨

حُبُّ الْوَطَنِ وَالِانْتِمَاءِ إِلَيْهِ مِنْ عَوَامِلِ بِنَائِهِ.................... ٣٠

الْعِلْمُ وَالْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ مِنْ عَوَامِلِ الْقُوَّةِ فِي بِنَاءِ الدُّوَلِ.............. ٣٢

يَا أَهْلَ مِصْرَ!!.. ٣٧

الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبَا قُوَّةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَنَصْرِهَا.............. ٤٠

مِنْ عَوَامِلِ قُوَّةِ بِنَاءِ الدُّوَلِ تَجَنُّبُ أَسْبَابِ سُقُوطِهَا وَهَلَاكِهَا.............. ٤٦

الْفِهْرِسُ.. ٧٢